

الهوية الدينية والجغرافيا : مواقف كنسيّة من أوروبا ومن المسلمين فيها: غلق الحدود أم قطع الجسور ؟

د. حسن القرواشي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
(جامعة تونس)

I - تأسيس

1) مفارقات لافتة.

من المفارقات اللافتة اليوم أنه بقدر ما يسري في الفكر التبشير بنهاية الجغرافيا في الاقتصاد ونهاية التاريخ والإنسان الأخير في مجال الفكر والايديولوجيا⁽¹⁾ وموت الايديولوجيات نتيجة العولمة والثورة الاتصالية وانتشار الثقافة الرقمية فإنّ العديد من المؤسسات تعمل رغم مناداتها الريادية بهذه الأطروحات في اتجاه معاكس يهدف إلى تكريس الجغرافيا وغلق الحدود وقطع الجسور مع المختلف. ومنذ أحداث 11 سبتمبر 2001 وقبله بقليل، ظهرت في الكنائس الكاثوليكية والبروتستنتية وفي مجمع الكنائس الأوروبية ومجلس منتديات الأبرشيات الأوروبية ذي النزعة المسكونية وثائق لافتة عبّرت عن مواقف في حاجة إلى التدبّر وإمعان النّظر قصد اكتناه مقاصدها العميقة وربطها بالسياق الذي ظهرت فيه وبالبنية المتحرّكة في الفكر الديني المسيحي المعاصر

(1) انظر فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الجديد، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1993

اليوم والمحركة له. إذ يبدو أنّ السياسي الايديولوجي والديني اللاهوتي يلتقيان دون تنسيق معلن في الظاهر، وأنّ "ما تقوم به المؤسسة الدينية في مجال الروحانيات لا يختلف عما تقوم به المؤسسة السياسية في مجال الدنيويات.

(2) المسلمون محلّ رقابة.

فعندما رامت أوروبا توسيع الاتحاد واستكمال بناء الوحدة بوضع دستور ينظّم العلاقة بين مختلف الدول الأوروبية المتحدة نهضت الكنيسة الكاثوليكية فنادت بإقحام الإرث المسيحي في الدستور متناسية بذلك حقيقة علاقتها التاريخية مع الأنظمة السياسية وأمر الفصل بين الدّين والدولة الذي حُمِلت عليه حملا. وعندما أصبح وجود المسلمين في الغرب كبيرا وحضورهم الثقافي الروحي لافتا وأصبحوا محلّ ريبة ورقابة إثر إسقاط حائط برلين والبرجين أثّرت بالتوازي وبصفة متزامنة في الأوساط السياسية والدينية قضيتان متعلّقتان بالإسلام والمسلمين. فقد اتّخذت مسألة الحجاب الموسوم خطأ بالإسلامي في بعض الدراسات الغربية منطلقا لنقاشات عديدة آلت عمليا إلى حرمان المسلمات من منابع المعرفة وإلى تشويه الإسلام عبر اختزاله في قطعة قماش في الوقت الذي اتّخذت فيه مواقف أخرى تدافع عن حصانة بعض الروحانيات الأخرى وتضيق الخناق قانونيا على من يتجرأ على نقدها وإلا اتّهم بأخطر التهم. وفي نفس الفترة تقريبا أعدت لجنة "الإسلام في أوروبا" التابعة لمجمع المجالس الأبرشية الأوروبية (C. C. E. E) عملا يقارن بين مواقف مختلف التيارات المسيحية بمختلف طوائفها الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستنتية والانقليبانية والإسلام دون تمييز بين المذاهب، من الزواج مقتصرة في ذلك على ما هو موجود بأوروبا⁽¹⁾. وبذلك يصبح الإسلام والمسلمون في أوروبا مشغلا أوروبا تنكب على دراسته مختلف الهيئات الأوروبية كل من زاوية اهتمامها واختصاصها.

(3) المؤسسات متعدّدة والهدف واحد، غلق الحدود وقطع الجسور.

ورغم اختلاف هذه المؤسسات والمواضيع المطروحة فإنّ الهدف فيما يبدو واحد حتّى وإن لم يوجد تنسيق علني : غلق الحدود جغرافيا وقطع

(1) انظر WWW. ccee. Ch. وفيها تجد الوثيقة المتعلّقة بالزواج.

الجسور رعويا ولاهوتيا والتضييق على وجود المسلمين في الغرب دستوريا وقانونيا ومعرفيا واجتماعيا من خلال عرض قيمهم وحضارتهم بطريقة لافتة في ظروف غير مناسبة. ورغم ما في هذه المواقف من عداء صارخ للحداثة والعلمانية والأنسية الغربية والمواثيق الدولية التي دافعت عن حق الإنسان في الارتباط بمن يريد دون تمييز، وسعت إلى فصل الدين عن الدولة والسياسي عن الاجتماعي بجعل الدين مسألة شخصية موجودة في الحيز الذاتي الباطني، فإن فيها اعتداء على الحقيقة التاريخية وعلى منطق المسيحية ذاتها. وإذا نظرنا إليها في السياق الذي ظهرت فيه أصبحت محل ريبة ومعبرة عن مطالب سياسية بأدوات روحية. وقد ظهرت نتيجة هذه المطالب في الفكر الغربي نفسه حركات فكرية نادت بضرورة احترام إرث أوروبا اللاتكي وبضرورة تكريس المسار العلماني السائد عموما فيها وعدم السماح للمؤسسات الدينية بتجاوز فضائها وبالمطالبة بمراجعة السنن العلمانية التي أصبحت من تقليد أوروبا وجزءا من هويتها.

(4) مقومات الهوية الأوروبية بين الحقيقة والوهم.

ولئن ذكرنا المعارضة التي جوبهت بها مطالب الكنيسة فلا يعني أنها لم تجد مناصرين ودعاة في المجال الفكري والسياسي والبرلماني بالخصوص فهم كثر. ولن ننساق في هذا العمل وراء المطالب المنادية بإقحام المسيحية في الدستور أو عدم إقحامها كما لن نركز على دراسات الرافضين للزواج بين المسيحيين والمسلمين وما يستتبع ذلك من عنصرية واعتداء على حقوق الإنسان أو على المؤيدين بل إننا نريد أن ننظر في الحجج التي استعملتها الكنيسة الكاثوليكية للاستدلال على هوية أوروبا المسيحية ونتساءل إن كانت المسيحية ممارسة تاريخية ونصوصا دينية نظرية هي التي شكّلت دون غيرها هوية أوروبا بالفعل ؟ وهل يجوز تبعا لذلك أن نعامل المسيحية معاملة تفاضلية في الدستور الأوروبي دون غيرها من الأديان والروحانيات ؟ ونفس الشيء سنقوم به بالنسبة إلى الزواج. إننا نروم الكشف عن الرسالة الحقيقية المحجوبة وراء المنطوق به. ماذا تريد الكنائس بالضبط من خلال هذه الوثائق ؟ وهل إن فيدرالية الكنائس الأوروبية تريد من خلال التصدي الرعوي للزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين تحقيق نفس الأهداف التي رامت الكاثوليكية تحقيقها

من خلال المناداة بإقحام المسيحية في الدستور الأوروبي أم لا ؟ فإذا انتهينا من ذلك تساءلنا عن الدور الذي ينبغي أن تلعبه الثقافة العربية عامة والدينية بالخصوص مقارنة بالدور الذي تلعبه وسائل الثقافة والإعلام والكنائس المسيحية اليوم في الغرب ؟ هل يواصل المثقفون العرب المناداة بفتح الحدود أمام الآخر مهما كانت مواقفه والتبجح في ظروف لم تعد تسمح بذلك بريادة الثقافة العربية في هذا المجال وباختلاف دور الثقافة والمثقفين عن دور رجال الدين والإعلام والسياسة عموما ؟ أم إنهم مطالبون بالتأسيس لمقاربة جديدة تفهم فتح الحدود والتعامل مع من ينكر كيانها ويتصدى لهوياتها بطريقة جديدة ؟

II - توثيق، خطاب البابا بولس يوحنا الثاني : بناء أوروبا على أساس القيم الإنجيلية⁽¹⁾.

(1) موقف الكاثوليكية من الحداثة السياسية، احترام استقلالية النظام الديمقراطي وعدم التدخل فيه.

تضمنت الرسالة التي أرسلها البابا يوحنا بولس الثاني إلى المشاركين في الندوة الأوروبية التي نظمها مكتب الرعوية الجامعية التابع لنيابة روما بالتعاون مع لجنة أبرشيات المجموعة الأوروبية ومع فيديرالية الجامعات الكاثوليكية بأوروبا الرؤية التي انطلقت منها الكنيسة الكاثوليكية وبها بررت ضرورة مساهمتها في وضع الدستور الأوروبي وبناء أوروبا حسب القيم التي شكلتها ونحتت ملامحها. وحتى لا يبدو البابا متناسيا لطبيعة العلاقة التي تربط الكنيسة بالدولة أو معبرا عن حنين غير واع إلى النظام القديم أو مقتنصا لفرصة بها يثار للكنيسة التي حملت منذ الثورة الفرنسية عامة وسنة 1905 خاصة على التحلي قهرا عن الشأن المدني، ذكر بمواقف الكنيسة من الدول واعتبرها تنطبق اليوم على مجموعة الدول ككل. فليست الكنيسة بحكم وفائها لهويتها ورسالتها الانجيلية مخولة للتعبير عن الحل المؤسساتي أو الدستوري الذي ترتئيه وتفضله وليس من حقها أن تتدخل في الشأن السياسي الديني. بل إنها تعلن صراحة أنها تحترم بصفة متناغمة استقلالية النظام الديمقراطي، ولكن لا يمكن للكنيسة باسم نفس الهوية والرسالة الانجيلية ذاتها ألا تهتم بالقيم الملهمة لمختلف

(1) Jean-Paul II, Edifier l'Europe sur les valeurs qui l'ont modelée, Documentation Catholique, 5 Janvier 2003, N 2283, 22.

الاختيارات الدستورية والموجهة لها. ف وراء الاختيارات ثمة رهانات وإشكاليات أخلاقية معرضة للخطر بما أن هذه الاختيارات تعبر عن رؤية حول الإنسان والمجتمع والخير المشترك. وإن وعي الكنيسة بهذه الرهانات هو الذي يؤسس حقها وواجبها في المساهمة في النقاش حول الدستور الأوروبي لذلك تقوم الكنيسة الكاثوليكية انطلاقاً من نفس القيم والمبررات بعملين متناقضين دون أن يعتبر ذلك أمراً مستغرباً. فهي من جهة لا تتدخل في الشأن السياسي وتعامل المجموعة معاملة الفرد، ومن جهة أخرى ترى أن من واجبها أن تتدخل فيه ما دامت المواضيع المطروحة مرتبطة برؤيتها حول الكرامة البشرية كما ضببطت في تعاليمها الاجتماعية.

(2) واجب الاعتراف بالأنسية الأوروبية وبمحورية السند اليهودمسيحي.

وحتى يتلاءم النظام الأوروبي الجديد مع تطوير الخير العام الأصيل، من الضروري في نظر البابا أن يقع الاعتراف بإرث الأنسية الأوروبية الذي ضمن لأوروبا إشعاعاً مميزاً في تاريخ الحضارات. وتتمثل قيم هذه الأنسية في المساهمة الفكرية والروحية التي حدّدت هوية أوروبا عبر التاريخ وأصبحت اليوم من إرثها الخاص. إنها قيم متعلّقة بكرامة الإنسان وقداصة الحياة البشرية ودور العائلة المركزي المؤسس على الزواج وأهمية التربية وحرية التفكير والتعبير والحق في الحرية الدينية في أبعادها الثلاث : الفردي والجماعي والمؤسّساتي.

ولئن كانت الجذور الثقافية التي ساهمت في تثبيت هذه القيم متعدّدة ، إذ هي تمتد من مساهمة اليونان فالرومان فالشعوب اللاتينية والسلتية والجرمانية والسلافية إلى مساهمة الثقافة اليهودية والإسلامية فإن التقليد اليهودي المسيحي يعد القوة القادرة على التوفيق بينها وتثبيتها وتطويرها. وإن اعتراف أوروبا بهذه الحقيقة التاريخية اليوم وهي تستعد لوضع نظام مؤسّساتي جديد يجعلها غير قادرة على تجاهل إرثها المسيحي بما أن جزءاً كبيراً مما أنتجته في المجال القانوني والفني والأدبي والفلسفي قد تأثّر بالرسالة الإنجيلية⁽¹⁾. وفي نظر البابا فإن الاعتراف بهذه الحقيقة التاريخية والمطالبة بترجمتها في الدستور

(1) بولس يوحنا الثاني، المصدر نفسه، 23.

لا يعني مطلقاً أنّ الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل متطلبات الحداثة المتمثلة في علمانية الدول بصفة عادلة إن في المستوى الفردي الوطني أو الجماعي الأوروبي⁽¹⁾ وأنها منساقّة وراء تيار الحنين إلى الماضي ساعية إلى إعادة المنوال القديم بصفة آلية دون معرفة التحديات الراهنة ودون الانفتاح على متطلبات الفكر الحديث. فالأمر لا يفهم بهذه الطريقة ولا يطرح من هذه الزاوية لأنّ الذاكرة التاريخية تتطلب ذلك ومن يهمل إرثه أو يتهاون في احترامه يعرّض هويته للخطر وحتى للذوبان⁽²⁾ ومهمّة أوروبا المستقبلية بالخصوص. فأوروبا مطالبة بأن تكون اليوم مثال التقدم الحقيقي وأن تشجّع على العولمة في تضامن دون إقصاء وتساهم في بناء سلم عادلة ودائمة في أوروبا وفي العالم وتجمع بين مختلف التقاليد الثقافية المختلفة حتى تبعث أنسية يساعد فيها احترام الحقوق والتضامن والخلق كل فرد على تحقيق مطامحة النبيلة.

(3) الحداثة الحق لا تتعارض والروحانيات، وعلاقة الإنسان بالله قبل علاقته بالمؤسسات.

ودون أن يواجه الحداثة صراحة وفي خضم مناقشة الإشكال المتعلّق بجذور أوروبا الانجيلية وهويتها المسيحية ذكر البابا بالقيم التي لا ينبغي تجاهلها في بناء الكيان الجديد. هذه القيم مركّزة على دور الكنيسة الاجتماعي ودور الدين عموماً. ولذلك نبّه البابا السياسيين إلى ضرورة التمسك بتصور سليم لللائكية وللمؤسسات السياسية وبحتمية الانفتاح على البعد الديني. فليس للمؤسسات السياسية والسلط العمومية صفة مطلقة والله هو الأولى، والشخص البشري ينتمي إلى الله انتماء أسبق وغريزيا قبل انتمائه إلى المؤسسات، وصورة الله مطبوعة بصفة لا تمحى في طبيعة كل إنسان. وإذا لم يقع احترام هذه القيم يكون الخطر محدقاً، وبالإمكان أن نضفي الشرعية على اللائكية والعلمانية واللاأدرية الملحدة المؤدية إلى إقصاء الله والقانون الأخلاقي الطبيعي. وعلى هذا الأساس لا بد من مقاومة كل محاولة تسعى إلى تهيش المساهمة المسيحية والتتكرّر لدور المؤسسات الدينية في بناء أوروبا الجديدة

(1) بولس يوحنا الثاني، المصدر نفسه، 26.

(2) Jean Paul II, L'apport de chacun des pays d'Europe, à l'ambassadeur d'Allemagne le 12 septembre, Documentation Catholique, 5 Janvier 2003, N 2283, 24.

وتجعل الانتماء إلى أوروبا يرتكز على الجغرافيا والاقتصاد لا على البعد الديني والثقافي.

لم يناد البابا صراحة بالإقصاء وبأن تتجاهل أوروبا دورها نحو القيم الروحية الأخرى ولكنه لم يدافع إلا على المسيحية واليهودية المسيحية خلافا لبعض الهيئات الكاثوليكية الأوروبية التي دعت صراحة إلى حماية الأقليات وحذرت من أن تتحول أوروبا إلى قلعة محصنة فتقطع الجسور مع جيرانها جنوبا وشرقا وتتكرّر للسياسة التي سلكتها إزاء الهجرة واللجوء السياسي والفقر في العالم. وإذا كان من حق البابا أن يدافع عما يؤمن به ويظل مرتبطا بالمنطلقات اليهودية المسيحية التي اعتمدها في الاستدلال على واجب المحافظة على التراث وضرورة بناء أوروبا الروحية بالاعتماد على الانجيل، فإنّ الحجج التي اعتمدها لا ترتقي إلى مقام المسلّمات والبدهيّات ولا تعبر عن حقائق قاطعة ولا يمكن تبعا لذلك أن تكون سنداً معرفياً قوياً لما يدعو إليه رغم أننا لا ننكر تأثير المسيحية في الوجدان الغربي. إلّا أنّ التأثير لا يعني أنّ أوروبا لم تكن في تاريخها إلا مسيحية لا غير وينبغي أن يظلّ مستقبلها كذلك وإنّ مجرد النّظر في الكتاب المقدّس وتعاليم عيسى بطريقة نقدية من شأنه أن يضيف النسبية على الحجج التي اعتمدها البابا ويجعلها في حاجة إلى المراجعة.

4) الرهان الحقيقي معرفي، تهميش الروافد الروحية والمعرفية غير اليهودمسيحية.

اعتبر البابا أنّ التقليد اليهودي المسيحي قد كان القوة التي تمكّنت من الملاءمة بين مختلف جذور أوروبا الثقافية وتثبيتها وتطويرها. إلّا أنّ مجرد الاعتراف بتنوّع الجذور لا معنى له إذا اعتبرنا أنه وقعت إعادة صياغة المساهمة اليونانية أو الرومانية أو اللاتينية والجرمانية. . . صياغة جديدة حسب اليهودية المسيحية. فهذا يعني بكل بساطة أنه وقع إفراغ هذه المساهمات في بناء المسيحية من خصائصها الثقافية المميّزة وإلغاء النسق الفكري الحاضن لها واستبدالها بنسق يهودي مسيحي مميّز. وهذا أمر غير صحيح تاريخياً ولا يطرح بمثل هذه الكيفية. فقد تأثرت كل الأفاق الثقافية التي تعاملت مع المسيحية

وأثرت فيها وكانت العلاقة بينهما مبنية على التراشح والتفاعل ولا وجود لتأثير في اتجاه واحد أو لهيمنة عنصر على آخر كما سنبيّن ذلك فيما بعد.

وإذا كانت الدراسات تتفق حول جلّ ما ذكرنا فإنّ الاختلاف كبير حول مفهوم اليهودية المسيحية. فماذا تعني بالضبط هذه المقولة وهل هي بالفعل معطى ثقافي أم أيديولوجي ؟ وما هو دورها التاريخي في صياغة المسيحية ؟ هل كانت اليهودية المسيحية على افتراض كونها مسلمة تاريخية الاتفاق حولها كامل، بمعزل عن المؤثرات الروحية المرتبطة بالإرث السومري والبابلي والكنعاني والفرعوني ؟ وهل يتناغم محتواها مع متطلبات الحداثة اليوم وحتى مع عقيدة التثليث ذاتها ؟ وهل بالفعل لم تعرف أوروبا روافد روحية أخرى مؤثرة فيها بعمق رغم أهمية التقليد اليهودي المسيحي ؟ وأخيرا عن أيّ أوروبا نتحدّث ؟ أوروبا الجغرافيا أم أوروبا الفكر والحضارة ؟ وفي هذه الحالة متى كانت أوروبا واحدة موحدة فكريا وحتى سياسيا ؟ هل هناك علاقة إن جاز لنا أن ندرج أوروبا القرون الوسطى والإقطاع ضمن هذه التسمية، بين أوروبا الأنوار والثورة العلمية والتقنية وأوروبا الحرب العالمية وأوروبا القديمة ؟ هل يجوز التغافل عن الفوارق الجوهرية بين الأوروبيين المسيحيين أنفسهم في فهم الإنجيل ؟ وما المطالب العميقة المحجوبة الثابوة في المطلب الظاهري المناادي بإدراج المسيحية في الدستور الأوروبي في ظروف قاسية وغير مناسبة سياسيا ومعرفيا بالنسبة إلى المسلمين ؟

III - تحليل

1) غلق الحدود قانونيا وبالاستناد الشكلي إلى التاريخ والمعرفة.

لا يمكن لأحد أن ينكر الدور الخطير الذي لعبته اليهودية في بناء الكنيسة ونشأتها سواء بنصوصها المقدسة أو بمخيلاتها أو بجهازها النظري رغم أنّ المسيحية دين صادر عن اليهودية ومتجاوز لها في نفس الوقت. كما لا يمكن تجاهل الدور الخطير الذي لعبه الفرع اليهودي المسيحي باعتباره عنصرا هاما في تاريخ الكنيسة إلى حدود تدمير القدس وتمكّن بولس رسول الأمم من هزم

اليهودية مسيحية خصمه القوي (1) في بناء المسيحية. غير أن الأمور ليست على غاية من الوضوح والبساطة فهي شديدة التعقيد لا تتوفر حولها مصادر كافية وليس بالإمكان تبعا لذلك أن نستعمل بكل سهولة مصطلح اليهودية مسيحية السائد للاستدلال على جنور أوروبا المسيحية وعلى انصهار كل الروافد الأخرى فيه. فحد المصطلح محل اختلاف ومضمونه العام متناقض مع رسالة المسيحية العميقة (التمييز بين المسيحيين على أساس العرق وإيجاد ترتيبين تفضلي بينهم يجعل اليهود في المسيحية متميزين عن غيرهم والتقيّد بأشكال اليهودية الوطنية والسياسية على حساب الكونية والانفتاح على الأمم أهم) ووظيفته في التاريخ مخالفة كلياً للهدف الذي تروم الكنيسة تحقيقه عبره (هي عنصر من عناصر التفرقة وحتى الهرطقة). ولعل دلالة المفهوم العلمية الحقيقية خلافاً لما هو سائد قد أضرت بالمسيحية في القديم فلا يمكن اليوم استعمال نفس المفهوم للدفاع عن المسيحية عامة وعن أوروبا المرتبطة بها عبر الإنجيل.

(أ) اليهودية مسيحية مقولة مضلّة.

إن الصعوبة الكبرى في تحديد مصطلح اليهودية مسيحية تعود إلى العنصر الأول منه، هل تفهم اليهودية بالمعنى العرقي أم الديني ؟ (2) أم بالإثنين معا ؟ وإلى نوعية المقاربة التي بإمكانها السيطرة عليه معرفياً : هل نقف عند المحتوى فنعتبر اليهودية مسيحية كل الذين نادوا بالتقيّد بالشرعية كلياً أو جزئياً وأقروا بامتياز الشعب اليهودي في الدين الجديد وجعلوا الخلاص المسياني مشروطاً بالتقيّد بالشرعية ؟ أم نتبع المواقف العقيدة المتعلقة بالمسيحولوجيا ؟ أم نتجاوز ذلك إلى البنية الفكرية ومقومات التفكير حتى نتميز اليهودية مسيحية عن غيرهم ؟ فإذا اقتصرنا على الجانب العرقي فقط اعتبرنا اليهودية مسيحية كل مسيحي من أصل يهودي بقطع النظر عن موقفه اللاهوتي إن كان متحرراً من الشريعة أو مرتبطاً بها مؤمناً بالمسيحولوجيا السائدة أو له مسيحولوجيا خاصة. وإذا ركّزنا على العنصر الديني تدرج الانتماء العرقي وأصبحت المواقف

Adolf Von Harnack, Histoire des dogmes, Paris, Cerf, 1993, 34. (1)

Marcel Simon et André Benoit, Le judaïsme et le christianisme antique, Paris, P.U.F., (2) 1968, 259.

اللاهوتية هي الأساس. فاليهودمسيحي هو كل مسيحي من أصل يهودي أو من أصل وثني يقرن التقيد بالشرعية الموسوية بالعقائد المسيحية ويمزج بينهما. وواضح أن اليهودية عقيدة أو عرفا تبقى في الحالتين أساسية وبدونها يصبح المؤمن مجرد مسيحي لاغير. إلا أن هذه المنطلقات في التحديد تتضمن بعض التناقضات الداخلية وتثير مجموعة من الأسئلة.

ب) الاعتماد على البعد العرقي الديني في ضبط اليهودمسيحية خطير على المسيحية ومضاد لها.

فإذا استعملنا الديني والعرقي في آن واحد، نَعْدَر وجود يهودمسيحية من خارج اسرائيل حسب الجسد وأصبحت اليهودمسيحية معارضة للمسيحية ومقيدة لها⁽¹⁾ لأنها تصبح نتيجة هذه الشروط مجبرة عمليا على الاقتصار على اليهود ولا يمكنها أن تحتضن مؤمنين جددا من الأمم الأخرى فتحكم على نفسها بالضيق وعدم الانتشار والمحلية رغم أن النصوص الإنجيلية تدعو صراحة إلى التوسع عبر التبشير بملكوت الله، والتاريخ يدل على أن بولس قد سعى منذ البداية إلى الانفتاح على الأمم وعدم الاقتصار على فلسطين وكانت عداوة اليهودمسيحيين له شديدة لأنه اعتبر الانفتاح على غير اليهود أمرا رابانيا وأن الله قدر له تبشير الأمم منذ كان في بطن أمه. وإذا اقتصرنا على الجانب الديني أصبح التيار اليهودمسيحي يقيم مرتبة بين المسيحيين ذي الجذور اليهودية وغيرهم. ومعروف أنه حسب الإنجيل لم يعد هناك تفاضل بين المسيحيين ولا تمايز، ولا يمكن لليهودي أن يفخر بامتيازات الشريعة والختان إزاء الخاطئين الوثنيين الذين اعتقدوا المسيحية حديثا، وحسب بولس "ليس هناك يهودي ولا يوناني، وليس هناك عبد أو حر، وليس هناك ذكر وأنثى، لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع" (بولس، الرسالة إلى أهل غلاطية، 3، 28). ولهذه الأسباب ليس بالإمكان الاعتماد على البعد العرقي والديني في ضبط مفهوم اليهودمسيحية رغم أهميته التاريخية ولا بد من البحث عن دروب أخرى.

غير أن المسالك الأخرى المقترحة لم تود إلى نتائج معتبرة بل عَدَّت الإشكال. فالمسيحية بأكملها متقيدة إن قليلا وإن كثيرا بالشرعية وبشكل أو بآخر

(1) تعتبر ظاهرة معاداة السامية التي يعتبر يوحنا الذهبي الفم أبرز ممثلها، بمثابة رد فعل ضد التيارات اليهودمسيحية.

باليهودية. وقد كانت مكرهة تاريخيا وروحيا على الارتباط بأهم المفاهيم اليهودية واستثمارها. وما كان بإمكان المسيحية أن تتخلص من مفاهيم الخطيئة والمحبة والمسيانية وإلاّ لم يعد هناك مبرر للحديث عن الفداء والخلاص والصلب والقيامة ولذلك كان من الطبيعي في خضم هذه العملية التأويلية الكبرى أن يختلف المؤمنون في التمسك بالشرعية جزئيا أو كليا وفي المحافظة على العهد القديم بإعادة تأويله أو بإلغائه كليا. فهذه الأمور متأتية في الحقيقة من طبيعة العلاقة بين المسيحية واليهودية ولا يمكن بالتالي اعتبارها من خصائص اليهودمسيحية دون غيرها.

ت) محتوى اليهودمسيحية العقدي مضاد للمسيحية ذاتها.

وإذا وقفنا عند المستوى العقدي وجدنا صعوبات من نوع آخر. فقد يكون اليهودمسيحيون عموما دون البحث عن الفويرقات فيما بينهم والوقوف عند الاختلافات بين الدارسين، أبيونيين Ebionites/ناصريين Nazaréens (الاعتراف بأنّ يسوع نبيّ أو مسيّا وأنه بشر لا غير دون الاعتراف به إلها وابن الله مع تساؤل العديد من اليهودمسيحيين في هذا المجال إن كان يسوع هو ابن يوسف النجار أم ثمرة ولادة خارقة بفضل الروح القدس) (1) أو قائلين بالتبني أو غنوصيين مرتبطين بالأدب الرؤيوي أو ألكسائيين Elkesaites (فرع من اليهودمسيحية في سوريا تمكّن من إلغاء ديانة العهد القديم بإعادة تأويلها عبر التأمل. حافظ أصحابه على فكرة النبوة واعتبروا يسوع نبيا ولكنهم اتبعوا نبيا آخر واتخذوا كتاب وحي جديد) وللبعض منهم إنجيلهم الخاص الموسوم بإنجيل العبرانيين والقريب من الأناجيل الإزائية. غير أن محتوى هذه التحديدات يعتبر خطيرا بالنسبة إلى المسيحية، إذ تبدو اليهودمسيحية بهذا المعنى بمثابة مسيحية مضادة للمسيحية الرسمية. فكيف يمكن الاستناد إليها للاستدلال اليوم على انجيلية أوروبا والحال أنها اعتبرت هرطوقية في السابق فوسم أتباعها بالأبيونية ووقع تهميش بعض التيارات منها بحكم ابتعادها عن جمهور المؤمنين وتمسكها بأراء وقع تجاوزها نتيجة تطور الكنيسة التي أصبحت متكوّنة أساسا من الوثنيين. فتمكّنت الكنيسة من ضبط تعاليمها وتحديد مسيحياتها على قدر ابتعادها عن اليهودمسيحية. وإذا انسقنا جدلا وراء بعض الأطروحات التي

(1) Adof Von Harnack ، المصدر نفسه، 35.

تعتبر الإسلام مرتبطا بالألكسائيين⁽¹⁾ الذين يعتبرون نحلة يهودمسيحية يصبح الأمر خطيرا بالنسبة إلى علاقة المسيحيين والمسلمين ببعضهما لأن الإسلام يصبح بهذا الاعتبار مرتبطا باليهودمسيحية. وإذا كانت اليهودمسيحية أساسا من أسس المسيحية فالقرآن وإن جاء متأخرا يصبح بحكم ارتباطه باليهودمسيحية جزءا من المسيحية ينبغي أن تعتمد عليه الكنيسة وتعتبره جزءا من جذورها. وهذا أمر يرفضه المسلمون والمسيحيون وعلماء تاريخ الأديان في الآن نفسه.

(ث) وجود النسق يهودمسيحي.

وإذا نظرنا في المقاربة التي تنطلق من البنية النسقية ومن المقومات الفكرية نصل إلى نتائج حاسمة لا تؤيد مطالب الكنيسة. فمن الصعب الإقرار بوجود نمط من التفكير مرتبط باليهودمسيحية لأن اليهودية في هذه الفترة تمثل بناء معقدا متكوّنا من فرق عديدة مختلفة فيها المرتبط بالغنوص وباليونان وبفلسطين والسامرة. فبأي تيار ارتبطت اليهودمسيحية ؟ ألا يمكن إرجاع البنى الفكرية الشكلية إلى مؤثرات أجنبية لاسيما أن اليهودية قد خضعت لتأثير الثقافات الحافة بها وكانت متجذرة نسقيا في الإرث الديني السومري والآشوري والفرعوني. . . ؟ في هذه الحالة يمكن الحديث عن مؤثرات يونانية أو فارسية أو فرعونية. ولذلك فحتى الارتباط بالبنية من شأنه أن يضعف من أطروحة الكنيسة لأن كل المعطيات تضعف الحجة التي اعتمدها البابا يوحنا بولس الثاني وتكرّس في المقابل الأطروحة المناقضة إذ تجعل المسيحية وليدة مساهمة جميع الأمم واليهودمسيحية مجرد حلقة ضمن سلسلة طويلة معقدة. فماذا يبقى من هذه الحجة بعد أن أصبحت مجرد فرضية متهافئة مضللة معرفيا، وتحف بحقيقتها التاريخية اختلافات كبيرة ولا تدل في كل الحالات من الناحية الفكرية والتاريخية على المعنى الذي يراد منها أن تدل عليه اليوم ؟ أليست أقرب إلى الايديولوجيا منها إلى الحقيقة التاريخية ؟

(2) أوروبا فضاء منفتح على الدوام والمسيحية ثمرة روافد متعدّدة.

بالإمكان الاستدلال على البعد الايديولوجي في تفكير البابا وعلى هشاشة حجته من خلال معطى آخر يتعلّق بتتبع الفكر المسيحي ذاته تاريخيا إذ تحكّمت

(1) Andrea Tor, Les origines de l'Islam et le Christianisme, Paris, L. A et d'Orient, 155.

في فهم الإنجيل وتجسيم المسيحية عمليا بنى فكرية مغايرة لما هو موجود في الإنجيل ذاته وفي النسق اليهودي وساهمت في بلورة التوحيد المتوسطي ومنه المسيحية أبنية فكرية لاعلاقة لها بالشرق بل تجد جذورها في الرافد الهندأوروبي أي في ثلاث قارات : آسيا وأفريقيا وأوروبا دون أن نقف عند جذور اليهودية الحقيقية وعلاقتها بالحضارات الشرقية القديمة واضطلاعها بنفس العمل الذي مارسه عليها المسيحية أي استغلال الأديان الفرعونية والكنعانية والآشورية يهوديا وإلغاؤها بالتجاوز في نفس الوقت. فنقتصر في الحالة الأولى على علمين من الآباء وفي الثانية على تأثير الرهبة والملكية في بناء المسيحية بناء وقتيا مرتبطا بالظروف وفي الثالثة نشير إلى أن أوروبا كانت مفتوحة روحيا من خلال الحديث عن الميثرية وعن علاقة التوحيد المتوسطي بالتوحيد الهندأوروبي رغم اختلاف الايديولوجية النبوية الحاضرة للتوحيد المتوسطي عن الايديولوجيا الحاضرة للأديان الهندأوروبية.

أ) ضمور اليهودمسيحية في التقليد ومقاومة بعض الآباء لها.

لم تتجل الخلفية الفكرية الشرقية المتحكمة في اليهودمسيحية والمؤسسة للمفاهيم الكتابية في أعمال كبار الآباء في القرن الثالث مثلا بل يمكن الإقرار أن المرجعية التي اعتمدت في فهم الإنجيل ليست كتابية وأن أصول المسيحولوجيا ستكون مأخوذة من الفلسفة اليونانية بصفة غير مباشرة عبر العمل الذي قام به فيلون الاسكندري. ولذلك سيكون الكتاب المقدس مجرد منطلق أو تعلقة لصياغة مسيحية بمفاهيم يدركها العقل اليوناني وتكون في نفس الوقت متحررة من الأطر اليهودمسيحية فيها تتدرج الشريعة إلى مرتبة دنيا وتصبح المسيحية ديانة أخلاقية كونية مرتبطة بالأفق الإنساني لا بالأفق الإثني العرقي ومتحررة في نفس الوقت من الجهاز النظري الكتابي. وما كان بإمكان المسيحية أن تستمر دون أن تتكيف مع المخيال اليوناني ذلك أنه لم يكن بإمكان العقل اليوناني أن يفهم عبارة المسيّ دون أن ينقلها إلى مفهوم يقابلها في الجهاز النظري المعتمد لديه. ورغم أن عملية بناء المسيحية وبالأخص المسيحولوجيا كانت عملا معقدا فإن المفاهيم الكتابية وبالأخص الرجاء المسائي وربط ملكوت الله بدلالة وطنية قد ضمرت حتى أصبحنا نجد مسيحية

يتحكم فيها الغرب جغرافيا وأنساقا فكرية لا علاقة لها بالمفاهيم المركزية التي عليها اعتمدت اليهودمسيحية وبالسياق الديني الروحي لأنها استعملت في الأصل لفهم نشأة الكون وتطوره وهي مزيج من العقلانية اليونانية والأسرارية الشرقية.

(ب) مسيحولوجية كليمنضوس الاسكندري:مزاوجة بين الأفلاطونية والرواقية واستبدال المشاغل الميتافيزيقية بالدينية.

ولا يمكن فهم مسيحولوجية كليمنضوس الاسكندري (ت نحو 216/211) Clément d'Alexandrie دون معرفة مقومات الفلسفة الأفلاطونية والرواقية ودور فيلون الاسكندري (ت نحو 50) Philon d'Alexandrie في إعادة صياغة التراث اليوناني بكيفية يمكن عبرها إقحام المفاهيم الكتابية بطريقة من شأنها أن تجعل اليهودية فالمسيحية فيما بعد مفهومة مقبولة في الأوساط المهينة. لقد جعلت الأفلاطونية الله في قمة عالم الأفكار بعيدا عن عالم الظواهر ويستحيل ربطه بالعالم المادي نظرا إلى تعاليه المطلق. وحتى يمكن توفير همزة وصل بين العالمين استحوذ فيلون على الفكرة الرواقية التي تجعل القوى الإلهية ماثوثة في الأشياء متطابقة مع الكون⁽¹⁾ فزواج بذلك بين التيارين الفلسفيين حتى يتمكن من تجاوز الثغرة التي تفصل الله عن العالم وتجعله بعيدا عنه في الأفلاطونية ويحافظ في نفس الوقت على فكرة التعالي. فكان الكلمة هو الوسيط بين العالمين وهو الذي يتولى عملية الخلق وتنظيم الكون دون أن يكون متطابقا مع الله الذي يبقى متعاليا ومنفصلا عن الكون. وبهذا المزج بين العناصر الأفلاطونية والرواقية وإعادة تركيبها استطاع فيلون أن يجد مبدأ من شأنه أن يفسر له نشأة الكون وصيرورته دون أن يقع في الإفراط، فيجعل الله متعاليا جدا أو قريبا جدا من الإنسان. ولئن استحوذ كليمنضوس على هذا البناء فإنه في الحقيقة قد قام بعملية تحويل فيها أصبحت المشاغل الدينية الأخلاقية لا الفلسفية الميتافيزيقية هي الأساس : كيف يمكن لله أن يتصل بالإنسان ويظل في علاقة معه. ورغم أن مشغله ديني بل مسيحي إذ جعل يسوع المسيح هو الكلمة ودور الكلمة متمثلا

(1) Eugène de Faye, Clément d'Alexandrie, Etude sur les rapports du christianisme et de la philosophie grecque, Paris, Ernest Leroux, 1898, 231.

في خلاص البشرية وحرص على المحافظة على تعالي الله، فإنه لا يمكن تجاهل تأثير الأطر اليونانية في بناء المسيحية وتبسيط الأمور والادعاء بأن الرافد اليهودمسيحي هو الأساس وأنّ الإنجيل هو المصدر الوحيد الأساسي. فقد ترجمت المسيحية في قوالب فكرية جديدة أنشأتها إنشاءً جديداً دون ارتباط بمنوال سابق ولو وقعت المحافظة على المفاهيم الكتابية والمنطقات التي اعتمدها التيار اليهودمسيحي لما انتشرت المسيحية لدى الأمم وأصبحت كونية فيما بعد. وقد تحمل الفكر المسيحيولوجي الناشئ وزر الارتباط بالأفلاطونية الميتافيزيقية الساعية إلى تخليص الأشياء من واقعيّتها وتحويلها إلى أمور مجردة إذ اعتبر يسوع كليمنضوس فكرة مجردة وكائنات غير واقعي دون خصائص بشرية واضحة لا يمكن تبعاً لذلك أن يتعذّب ويتألم. وإن رفض مسيحولوجية كليمنضوس واعتبارها مخلةً بالمسيحية لأنها تؤدي إلى الظاهرانية Docétisme (النظر إلى يسوع المسيح على أساس أنه كائن إلهي فقط) ليذكر بأبيونية اليهودمسيحيين على الأقل من الناحية النسقية (يسوع المسيح بشري فقط) إذ مازالت المسيحية تبحث عن الصيغ العقديّة المثلّي ويدل في نفس الوقت على أنّ تحديد الهوية الروحية لم يرتبط دائماً بجذور واحدة وأن الجغرافيا وفي هذا السياق نعني فلسطين كانت بدون تأثير.

ت) الزوج الآري السامي أساس الهوية بدل اليهودمسيحية.

إنّ ارتباط مسيحولوجيا كليمنضوس بالفلسفة اليونانية لا يسمح بتأكيد أطروحة البابا وتبرير الشرعية على مطلبه رغم ارتباط المسيحية بالفكر اليونانيروماني وبالإنجيل والجغرافيا الأوروبية. فقد كانت العلاقة بين الدين والروحانيات والفلسفة والميتافيزيقا مبنية على التقابل. ولئن كانت الفلسفة وليدة اليونان جغرافياً فإنه كان ينظر إليها على أساس أنها كائن غريب غير مرغوب فيه إزاء المسيحية، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليه اليوم في الاستدلال حتى وإن صدر من صلب أوروبا. وسيقوم الفكر الأوروبي في القرن XIX بعملية معاكسة تهدف إلى إنكار اليهودية واعتبارها تقليداً أجنبياً عن التقليد الذي يرغب في الارتباط به ويراه معبراً عن هويته عندما اكتشف الباحثون الزوج الآري السامي واعتبروه أساس الهوية. فنظر إلى اليهودية على أنها تقليد ينبغي

تجاوزه وأنها مصدر بارد منكفى على ذاته منغلق يعادي التقدّم إزاء الآرية المصدر الحيوي الحار المفرز للعقل والخيال والعلوم والفنون والسياسة⁽¹⁾ أساس هوية أوروبا الحق والمفسّر لسرّ هيمنتها على الكون . لذلك اعتبرت اليهودية عبر السامية في نظر العديد من المفكرين طفولة أوروبا إزاء الآرية التي مثّلت شبابها الدائم وما التذكير بهذا إلّا لمجرد التأكيد على إلغائها وتجاوزها والإلحاح على أنّ الزوج الآري السامي هو الذي أقحم أوروبا في شعاب العقلانية عبر المعجزة اليونانية وحرّرها في نفس الوقت من شاعرية الشرق ومن الاعتماد على القلب. فلا وجود في الفكر الأوروبي لقيم ثابتة يعتبرها الأوروبيون أصولاً وجذوراً لكيانهم، وإنّ مواقفهم من التراث الكتابي واليوناني متغيّرة بتغيّر الأوضاع والمعرفة وكثيراً ما قدّم الرافدان اليهودي الكتابي والغربي اليوناني على أساس أنهما تؤمان متصارعان قد انفصلا عن بعضهما منذ ريعان الطفولة فلا يمكن الجمع بينهما.

(3) أصول أوروبا الروحية هندية وشرق أوسطية.

إنّ حجة البابوية لتضعف وتصبح ضد مطلب الكنيسة ذاتها عندما ننظر إلى حقيقة الروحانيات في الفضاء الأوروبي ونحاول أن نفهم عبر المقارنة معنى التوحيد المتوسطي وعلاقته بالتراث الهندوروبي وبالإرث الشرقي القديم الموجود قبل اليهودية بقرون. ففي هذه الحالة تبدو أوروبا متعلّمة لا معلّمة منفتحة لا منغلقة متساهلة لا متشدّدة أصولها العميقة الفيدا والأبستاق وأسطورة قلقامش لا الانجيل، ومتجذّرة في الفضاء الآري الهندي والآري الفارسي قبل الهندأوروبي، وفي بابل وسومر لا في فلسطين أو حتى في أوروبا ذاتها. وإذا كانت الدراسات اللسانية قد أثبتت أن اللغات الأوروبية الموجودة في شمال أوروبا وفي شرقها وغربها في علاقة متينة مع اللغات المرتبطة بالحثيين وبالهند والفرس منذ ما يقرب من ألفي سنة قبل المسيح، فإن الدراسات في تاريخ الأديان المقارن قد أثبتت أنّ أوروبا في المستوى الروحي لم تكن منغلقة بل ربما ترتد جذورها العميقة إلى ما لا يتصور عادة. فليست اليهودية التي تستند إليها إلّا مجرد حلقة في تاريخ طويل فيه المعروف والمجهول وليس

J. Lambert, Le Dieu distribué, Paris, Cerf, 1995, 21. (1)

التوحيد اليهودي الذي يعتبر عادة علامة دالة على عبقرية العبرانيين وريادتهم الروحية إلا مجرد تطوير لما كان كامنا في رحم الفرعونية واستثمارا لما كان سائدا لدى الهندوأوروبيين. ودون الإسهاب نقتصر على أمثلة دالة على ارتباط أوروبا نسيقا وفي مستوى المخيال والمادة والعقائد والطقوس والأسرار بجذور ليست يهودية مسيحية من الناحية الفكرية وأوروبية من الناحية الجغرافية.

(أ) الأصل البعيد : الحلقة الهندوإيرانية.

إنّ الجذور لا تقتصر على الدين اليهودي والفلسفة اليونانية والفضاء المتوسطي بل هي أعمق تاريخا وأوسع مجالا. ويمكن إرجاعها في مستوى التاريخ إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح حسب ما لدينا من وثائق ثابتة وإلى فضاء شاسع تكون فيه للهند ولإيران فيما بعد دور مركزي حاسم في الحلقة السومرية البابلية أولا وفي الحلقة الاسرائيلية ثانيا وأخيرا في الحلقة المسيحية وفي الحضارة اليونانيرومانية عموما. فهناك جذور هندية إيرانية لليهودية ذاتها التي تعتبر منطلق التوحيد المتوسطي وفترة آرية هامة سبقت وجود المسيحية في أوروبا يمكن اعتبارها بمثابة عهد قديم أو حلقة تمثّل ما قبل تاريخ المسيحية ذاتها. ولئن راجت في الدراسات الحديثة بعض المسلّمات التي جعلت اليهودية تلعب في الروحانيات وفي الأديان عندما ألغت التعدّد ونادت بالتوحيد ما لعبه فيثاغوراس (ت نحو 500 ق. م) في الرياضيات عندما حول فيثاغوراس الرياضيات إلى علم تجريدي محض، فإنّ العديد من المفكرين قد نادوا بضرورة مراجعة هذه المسلّمات. ولهذا لم تعد ريادة اليهودية مطلقة وعملها تعميقا للموجود بل لعلّ العكس هو الأقرب للصواب⁽¹⁾.

(ب) آثار المزدكية القوية في المخيال السامي وفي يهودية ما بعد السبي.

إنّ التماثل بين اليهودية والمزدكية وبين الميثرية والمسيحية وبين التوحيد المتوسطي أساس أوروبا والتوحيد الهندأوروبي أمر لافت في مستوى المادة والتركيب والمخيال رغم اختلاف الايديولوجيا : نبوية في التوحيد المتوسطي

M. Gauchet, Le désenchantement du monde, Paris, Gallimard, 1985. (1)

وترتكز على الوظائف الثلاث في الهندوأوروبية⁽¹⁾. ولئن كان تأثير إيران القديمة في إسرائيل سياسيا قويا فإنّ تأثيرها الروحي أقوى. ومنذ السبي تطورت اليهودية حسب المخيال الإيراني وتضمّنت العديد من العلامات الدالة على الجذور الروحية الفارسية. فمما لاشكّ فيه أنّ التوحيد الزرادشتي قد جلب اهتمام اليهود المتنوّرين بما أن يهوه هو بالنسبة إليهم على غرار ما هو موجود في الزرادشتية، إله السماء والإله الوحيد. ومنذ القرن VI بالخصوص إثر زرادشت بقليل ظهرت الصيغ الصريحة الأولى المعبرة عن التوحيد اليهودي في أعمال أشعيا Isaie. وإذا لم يدخل التوحيد إلى إسرائيل بفضل إيران وهذا ممكن فقد يكون موجودا لدى الأنبياء. فمما لاشكّ فيه أنّ تأثير إيران في إسرائيل كان مهما على الأقل في إدراك التوحيد إدراكا كاملا وفي تحديده بصفة أوضح⁽²⁾. وإنّ التماثل لكبير بين المزدكية ديانة أهورامزدا Ahura Mazda إله الخلق والخير واليهودية إثر السبي في مستويات عديدة. فرؤساء الملائكة في اللاهوت اليهودي ميخائيل وجبرائيل ورفائيل وأقانيم الحكمة والكلمة والروح القدس التي احتلت مكانة مرموقة في الفكر اليهودي إثر السبي تذكر بنفس النسق والتصور في المزدكية وبالأميّشا سبانّا Amecha Spenta الموجودة حول الإله الأكبر والمجسّمة لأهم الصفات الإلهية. وخلافا لما هو موجود في اليهودية قبل السبي أصبحت النظرة إلى التاريخ بعد السبي متطابقة مع النظرة المزدكية التي تجعل تاريخ العالم صراعا بين الخير والشر. فأصبحت اليهودية تزخر بالملائكة والشياطين والأبالسة بل يحمل البعض منها اسما إيرانيا. فأسمودي Asmodée الشيطان الذي يذكره الكتاب اليهودي طوبيا Tobie ليس إلّا مجرد تحويل للاسم الفارسي Aesma-dæva. وأكثر من ذلك فإذا كان اللاهوت المزدكي قد ابتكر أهرمان إله الشر أو إبليس رئيس أشرار الشياطين فإنّ اللاهوت اليهودي بعد السبي لا قبله قد ابتكر الشيطان Satan أو بليعال Bélial. وعموما فإنّ الأفكار المتعلقة بنهاية الزمن والعالم ومصير البشر النهائي وقيامة الموتى والحساب

(1) Charles Autran, Mithra Zoroastre et la préhistoire aryenne du christianisme, Paris, Payot, 14.

(2) A. Dupont-Sommer, L'Iran et Israël, in la Civilisation iranienne, préface de Henri Massé, Paris, Payot, 1952, 73.

بالنار والاحتفال باليوم السابع من الأسبوع (السبت) والشهر السابع من السنة هي أفكار إيرانية قبل أن تكون يهودية⁽¹⁾، فلا يمكن اعتبارها تبعا لذلك جزءا من هوية أوروبا اليهودمسيحية والعمل على احتكارها. فلا التاريخ ولا الحقيقة ولا المنطق يسمح بذلك.

ت) سلطان ميثرا القوي في أوروبا : حامي الأمبراطوريات ومدعم اللاهوت الشمسي.

دخلت الميثرية المرتبطة بالمعبد الهندي الإيراني لأول مرة أوروبا منذ منتصف القرن الثاني وانتشرت بالخصوص قرب الطرقات الكبرى التي كانت مصدر الاتصالات بالتقافات الأخرى وعرفت ازدهارها في القرن الثالث عندما بنى الأمبراطور كراكلا Caracalla معبدا ضخما لميثرا في روما ولما اعتبره ديوكلتان Dioclétien في سنة 307 حامي الأمبراطورية لأن الأباطرة الإيليريين Illyrien قد وجدوا في الميثرية ضالتهم المنشودة وبها تمكنوا من تأسيس سلطتهم السياسية على منطلقات روحية مدعمة لها. فإذا كان الأمبراطور منبثقا في الاعتقاد من الإله - شمس فلا يمكن للميثرية إلا أن تحظى بالاعتبار والتشجيع لأنّ اللاهوت الشمسي يجد في الميثرية سنداً قويا بما أنّ ميثرا هو إله النور ورفيق الشمس. ولذلك حظي ميثرا بالاعتبار وانتشر في كلّ الأوساط الاجتماعية الأرستقراطية ولدى التجار والجنود والموظفين وكانت الميثرية ديانة قوية إلى حد أن ارنست رينان Ernest Renan قد اعتبر أنّ العالم كان يمكن أن يكون ميثريا لو أن مرضا قاتلا أوقف المسيحية. وقد أزعج آباء الكنيسة التشابه الشديد الموجود بين المسيحية والميثرية إلى حد أن حماة الدين المسيحيين قد اعتبروا تلافيا للأخطار الناجمة عن التشابه بين الميثرية والمسيحية أنّ العديد من مظاهر العقيدة والعبادة لدى الميثريين هي تقليد شيطاني لأسرار الكنيسة⁽²⁾. فلا يمكن لديانة قوية منتشرة في الغرب وواكبت

(1) A. Dupont-Sommer، المصدر نفسه، 74.

Henri-Charles Puech, Mithra, in la Civilisation iranienne, préface de Henri (2) Massé, Paris, Payot, 1952, 110.

نشأة المسيحية أن تزول بسرعة دون أن تترك آثارها في النفوس بعد أن تركت آثارها الباقية إلى اليوم في الصخور والمباني والجغرافيا.

ث) يسوع على غرار ميثرا مخلص وكلاهما في علاقة مع الآب.

وإذا لم يكن التأريخ لنشأة الميثرية وانتشارها في الغرب من أهدافنا في هذا العمل فإن المقارنة بين المسيحية والميثرية الغربية (تختلف صورة ميثرا في الغرب عن ميثرا الإيراني، فإذا كان الثاني مقاتلا محاربا فإن الأول يبدو قديسا مخلصا) من شأنها أن تبرز أن أثر الميثرية قوي وجلي في المسيحية ذاتها محتوي ومخيالا وطقوسا. ففي الميثرية نجد طقسا يشبه التعميد على إثره يقع تثبيت المؤمن الجديد، وتناولاً لقربان باستعمال الخبز والكأس يسبق بتكريس المتطوعين للخدمة، وليست اللوحة الانجيلية التي تصف تمجيد الرعاة الله لإعلانه ميلاد المخلص (لوقا، 2) إلا صورة من احترام الرعاة لميثرا المولود الجديد. ودون أن نشير إلى أن 25 ديسمبر قد استعملت من قبل احتفالا بمولد ميثرا شمس العدالة قبل أن تستعمل لضبط تاريخ ميلاد المسيح الذي لم يضبط إلا بداية من القرن السادس وباعتماد فرضيات عديدة متناقضة لم تؤد إلى نتيجة حاسمة⁽¹⁾، نشير إلى التشابه البنيوي بين منزلة يسوع وميثرا ورسالتهما بالنسبة إلى الآب أو كبير الآلهة وعلاقتهم ببقية الآلهة القديمة. فميثرا مخلص في نجدة البشرية في الدنيا والآخرة وهو وسيط بين عالم النور والتعالّي عالم أهورامزدا وعالم الظلام السفلي عالم أهرمان وعلى غرار كان يسوع مخلصا ووسيطا. وإذا كا زوس أورمزد Zeus-Ormazd هو كبير الآلهة فإن ميثرا هو موضوع الديانة عمليا لأنه البطل الإلهي تماما مثلما هو الشأن في المسيحية إذ يتوارى الإله الوحيد في الطقوس وراء المسيح أداة الخلاص⁽²⁾. ولهذه الأسباب من السهل أن نقرّر أن جذور الديانة المسيحية مغرقة في القدم بعيدة عن الجذر اليهودمسيحي وعن التقليد اليوناني الروماني في نفس الوقت وأن وراء ما يعتبر أمورا بديهيّة عليه تبنى الحقيقة والمطالب، ليس دائما كذلك.

(1) C. Guignebert, Manuel d'histoire ancienne du christianisme, Paris, Alphonse, 1906, 163

(2) A. Loisy, Les mystères pains et le mystère chrétien, Paris, E. Nourry, 1914, 162.

ج) الطقوس : الكذب في فاتح أفريل وإطفاء الأضواء في المراقص،
بابل والبعل قبل روما والمسيح.

ومن الصعب أن يربط الناس اليوم بين ممارسات مازالت قائمة في قلب أوروبا الحديثة وجذورها الموعلة في تاريخ الساميين القدماء من كنعانيين وبابليين والمرتبطة بمسألة ذهنية معبرة عن عقيدة التجدد السنوي أساس الحضارة التمزجية. إنها ممارسات تتجاوز حواجز اللغة والجغرافيا والهوية مهما كان نوعها بقيت الرغبة في تطبيقها دون معرفة أحيانا أصولها وتفصيلها وخلفياتها الروحية⁽¹⁾ لأنها بالأساس إنسانية كونية. فليس الفصح اليهودي أو المسيحي إلا صورة من الفصح السامي رغم اختلاف العناصر : خروف، حمل الله، حيوانات أخرى. . . والنسق الذهني الحاضر له. فهو معبر في كل الحالات عن الرغبة في التحرر من الموت والخطيئة (المسيحية) ومن العبودية (اليهود في مصر) ومن رتابة الحياة والرغبة في التجديد الذي تكون الطبيعة بتحوّلاتها أحسن معبر عنها (الساميون). ولا فرق بين سكان أوروبا الذين يطلقون يوم 1 أفريل العنان للكذب ويطفؤون الأضواء في المراقص والملاهي في اللحظة الفاصلة بين سنة وأخرى ويلبسون الأقنعة في الكرنفالات ويوم الفوضى والتجدد والتحرر في بابل قديما. ففي مطلع كل سنة (1 أفريل قديما عوض 1 جانفي حديثا) يقوم الإله الأعظم ببابل بإبدال اللوح القديم بلوح جديد يعيّن فيه ما هو مرسوم للسنة الجديدة. ويعتبر هذا اليوم يوم فراغ وتحرر من المبادئ والقوانين والضوابط تباح فيه جميع الأعمال. ولذلك يبيع المسيحيون الأوروبيون اليوم الكذب في 1 أفريل بحثا عن التحرر والمزاح ولكنهم يجهلون أنّ بابل هي المتحكمة في سلوكهم وأنّ البعل لا المسيح هو المتسبّب في ذلك لأنّ الفراغ المؤدي إلى التحرر والمزاح مصدره الإله الأعظم الذي يقوم بإبدال الألواح في مطلع شهر أفريل لاغيره.

ح) الأسرار : أسلاف عيسى الكبار.

وإذا تجاوزنا الطقوس وجدنا أنّ أهم العقائد المسيحية متجذرة بدورها في النهج الأسراري بصفة نظامية رغم اختلاف المكونات وعدم ارتباط ذلك النهج

(1) يوسف حوراني، في الفكر الأسطوري البابلي، الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، لبنان، بيروت، عدد 73، السنة 14، سبتمبر، 11-12.

بثقافة دون أخرى وبجغرافيا دون جغرافيا. فهو بمثابة القوانين الفيزيائية الكونية موجود في جل الثقافات القديمة وإن فهم بطريقة مختلفة تحكمت فيها الثقافات والبيئة ولونتها بما هو متوفر لديها مؤثر في حياتها. ولم تشذ المسيحية عن استعمال هذه الرؤى أو هذه الآلة المؤدية إلى الحقيقة عندما أرادت أن تعبر عن الخلود والخلص، ولا يوجد فرق بنيوي متعلق بآليات اشتغال العقل المؤمن بينها وما هو موجود في الأساطير الإيرانية والفرعونية واليونانية القديمة... فالخلص في المسيحية يحصل بالمسيح الذي عرف الموت والقيامة وإذا ما اتحد المؤمن بالمسيح المائت والقائم من الموت عبر التعميد أو بواسطة القربان المقدس تأكد أنه متحد بموت الفادي وقيامته وأنه سيقوم بعد الموت إلى الأبد. وقد عبرت جل الروحانيات السابقة للمسيحية عن هذا باعتماد نفس النسق رغم اختلاف العقائد : توحيد، ثنائية، تعدد الآلهة، تاريخ خلاص، تاريخ بلا وجهة ودون كثافة. . . والنواة : الأمر متعلق بالطبيعة إلها لا بالألوهية المجردة، والمخيال : عالم الموت، الآخرة، . . . وجعلت بعض الآلهة مسؤولة دون سواها عن توفير ضمان الخلاص. فقد مزق التيتان (إسم لمجموعة من الآلهة في الميثولوجيا الاغريقية) جسد ديونيزوس زقريوس Dionysos-Zagéos ou Zagreus والتهموه ولكن تمكنت آلهة الحكمة أثينا Athénas من استرجاع قلبه إلى زوس Zeus الذي أعاده إلى الحياة وجعله خالدا. ووقع اختطاف كوراي Koré ابنة ديمتر Déméter آلهة الخصوبة في الميثولوجيا الاغريقية من قبل هاديس Hadis إله الجحيم ولكنها بعد أن غابت في عالم الأموات استطاعت أن تعود إلى الحياة بمساعدة إله الشمس هليوس Hélios وبأمر من زوس وأصبح بإمكان المؤمن أن يضمن لنفسه الخلود والخلص إذا ارتبط بأسرار ايلييزر Eleusis بالخصوص. وعاد أتيث Attis بعد تحولات كثيرة وجنون إلى وظيفته في حراسة آلهة الخصوبة والطبيعة سيبيل Cybèle. وتمكنت إيزيس Isis في الميثولوجيا الفرعونية من جمع بقايا زوجها أوزيريس Osiris الذي قتله أخوه ست Seth ومزق جثته وألقاها في البلاد وأعادته إلى الحياة بفضل التعزيم. فأصبح بذلك إله الخصوبة ضامنا للتجدد وقيامة النفوس في الآخرة. وكذا أيضا استطاع ميثرا عبر قتل الثور أن يقضي على عناصر الحيوانية في الإنسان وعبر القرابين أن يخلق كل الكائنات العاقلة ⁽¹⁾. ولهذه الأسباب لا يمكن أن نعتبر

(1) A. Loisy، المصدر نفسه، 15.

المسيحية طائرا في غير سرب وأنها متميزة نسقيا ومرتبطة وحدها دون غيرها بالفضاء الأوروبي الممتد جغرافيا من الأطلس إلى سيلان ومن المتوسط إلى بحر الشمال وزمانيا مرتبط بحضارات نشأت منذ ألفي سنة قبل الميلاد وشكلت الرافد الثقافي والبشري الذي منه ستنشأ حضارة اليونان والهند وشعوبهما.

(خ) العقيدة النواة : بنية التوحيد المتوسطي بنية هندأوروبية متحوكة ومكوّنات الإله الواحد وزعت.

إنّ ارتباط أوروبا المسيحية بآفاق جغرافية نائية وبتقافات مختلفة عنها لا يقتصر على الطقوس والأسرار والمخيل وعلى ما هو فرعي في الأديان بل هو متعلق أيضا بالنواة. ومثلما حجبت اليونانية التراث السامي وغربلته وأخرجته إخراجا جديدا بفضل الأفلاطونية والرواقية. . . بالإمكان أن نستدل في اتجاه معاكس على العمل الذي قام به التوحيد المتوسطي عموما إزاء البنية الدينية الهندأوروبية. إذ بدت أوروبا المسيحية عبر التوحيد متعلّمة لا معلّمة كما هو الشأن مع اليونان تستمد عناصر هويتها العميقة من التراث الهندي بعد أن تصرف فيه ونجحت في إخفاء مصادرها. ولئن كان بالإمكان البرهنة على التماثل البنيوي في تمثّل الألوهية في الهند وروما والبلدان السكندنافية (1) فبالإمكان تعميق الأمور والاستدلال عبر المقارنة على أن التوحيد المتوسطي مرتبط بنيويا بالهندأوروبي رغم اختلاف الايديولوجيا المحركة للأقفيين الروحين إذ تعتبر الوظائف الثلاث لدى الهندوأوروبيين (2) والنبوة لدى التوحيد المتوسطي

-
- (1) يشير الدارسون إلى التطابق الموجود في البنية الدينية بين أصقاع مختلفة رغم اختلاف أسماء الآلهة. فالبنية الدينية ثلاثية في روما والهند والسويد. ونجد نفس الوظائف. يعبر عن الوظيفة الأولى المتعلقة بالقداسة والسيادة ميثرا فارونا Varuna/Mithra في الهند وجيبتير وديوفيديس Jupiter/Dius في روما وأودين وتير Odin/Tyr في البلدان السكندنافية. أما الوظيفة الثانية المتعلقة بالنضال فيعبر عنها تباعا في البلدان المذكورة إندرا Indra ومارس Mars وتور Thor. أما الوظيفة الثالثة المتعلقة بالاقتصاد والخصوبة والطعام والشراب فيمثلها تباعا أيضا حسب ترتيب البلدان المذكورة: التوأمان أسفان أو نستيال Asvin ou Nasatya في الهند وكذلك أيضا بوشان Pushan إله القطيع، وفي روما كويرينيس Quirinus وفي اسكندنافيا فراير Freyr. يمكن الاعتماد على دراسة جون لومبير ذات الأطروحة اللافتة والاعتماد عليها في معرفة الإشكاليات المتعلقة بالمقارنة الانتروبولوجية الدينية وبأهم الدراسات والأطروحات والمراجع المتعلقة بعلاقة التوحيد المتوسطي بالهندأوروبي: Jean Lambert, Le Dieu distribué, Paris, Cerf, 1995, 33.
- (2) حسب ايديولوجيا الوظائف الثلاث لا يمكن للعالم أو المجتمع أن يستمر إلا بتعاون ثلاث وظائف مترابطة تشكل وحدة رغم تعددها: السيادة والقوة والخصوبة. ولمزيد الإلمام بهذا انظر أعمال جورج ديميزيل.

الايديولوجيا المتحكّمة في التفكير والبناء الاجتماعي والديني. فالتوحيد المتوسطي يبدو عبر المقارنة استحوذا على التوحيد الهندوأوروبي. فالإله الذي كان واحدا في ثلاثة في الهندوأوروبية توزّع في التوحيد المتوسطي. فعبرت اليهودية عن الوظيفة الثالثة المرتبطة بكويرينيس والمتعلقة بالاقتصاد والمال، والمسيحية بالثانية المرتبطة بمارس وبالقوة بعد أن غيرتها وجعلتها مرتبطة بنقيضها أي بالسلم: "من صفحك على خدك الأيمن. . ."، والإسلام مرتبطا بجبتير وبالوظيفة الأولى السيادة المطلقة.

د) الثقافة : غربنة مؤسّسة الرهينة الشرقية وشرقنة الملكية الغربية.

ليست الأمور على غاية من البساطة حتى ندعي بأنّ أوروبا إنجيلية مسيحية. وإنّ المباحث على اختلاف مقارباتها لتؤكد النقيض. فأوروبا في الواقع لم تكن حصنا منغلقا وكيانا دون تفاعل مع غيره. ولقد تحدّثت هوية أوروبا الروحية والثقافية والأخلاقية والطبية عامة بقدرتها على الانفتاح على الثقافات والبحث عن الطريف تدفعها في ذلك إرادة المعرفة والهيمنة والسيطرة على الظواهر دون أن تتشغل بنوعية الأصول وبمصادرها. وما وجدنا في التاريخ الأوروبي مسيحية واحدة عبر العصور ولم تكن اليهودمسيحية هي الآلة التي بها تتفحص أوروبا مايرد عليها وبفضلها تسند تأشيرة الدخول أو الرفض بل كانت اليهودمسيحية عنصرا من جملة عناصر أخرى لاغير. وإنّ هوية أوروبا المسيحية الحقيقية تتمثّل في قدرتها على هضم كل دخیل والتفاعل مع المعرفة السائدة شأنها في ذلك شأن كل الحضارات الحية دون أن تخرج عن المسلمات العلمية والمعرفية السائدة أو تخضعها للمسيح. لقد استفادت المسيحية من المسرح الروماني فأدخلت جزء كبيرا من عناصره في الليترجيا، وكان للفلسفة والطب الرواقيين ثم العربي لاحقا تأثير قوي في نظرتها إلى العلاقات الجنسية وإلى العزوبية والإجهاض وارتكاب المحارم و لا علاقة لذلك بالخطيئة الأصلية كما يتوهم عادة ⁽¹⁾. تفاعلت مع الرهينة الشرقية وتبنّت العناصر الروحية القوية فيها وإنّ غيرت من وظيفتها فجعلت وظيفة المؤسّسة الحفاظ على التراث القديم بعد أن كان ذلك التراث محاربا من قبل الرهبان الفارين إلى الصحراء بأفريقيا

Uta Ranke-Heinemann, Des eunuques pour le royaume des cieux, Paris, R. Laffont, (1990, 16-21.

ومصر وأعادت صياغة النواة المؤسسة للعمل الرهباني الذي لم يعد يرتكز على الانعزال والهروب إلى الصحراء والانفراد بل أصبح يرتكز على الحياة المشتركة والعمل والنظام من أجل بلوغ الكمال. ولئن غربنت المسيحية الرهبنة فإنها ستشرقن مؤسسة أخرى هامة لعبت دورا أساسيا في أوروبا هي مؤسسة الملكية وتحافظ في نفس الوقت على هويتها باعتبارها ديانة مؤسسة على عقيدة الخلاص بواسطة فاد Sotériologie. ولهذا تنكرت لإرثها البربري في هذه النقطة وعملت على تحويله إذ كان الملك البربري بالأساس رئيسا محاربا يتمتع بالهيئة والاعتبار والمانا(هي قوة خفية. . . تعتبر حسب ديركهايم مبدأ كل حياة وكل فعل وكل نجاعة) وينحدر من سلالة إلهية ويرتبط بتقليد بطولي⁽¹⁾ ويصعب على أتباعه أن يتبنوا الأفكار المسيحية المتعلقة بالغفران والصفح لأنها تتناقض ومثلهم، فأصبحت الملكية بفضل التأثير الكتابي في علاقة متينة مع المؤسسة الدينية والقيم الانجيلية⁽²⁾ مما يدل على أن التأثير كان دائما في الاتجاهين من جهة وعلى أن دور الأطر الثقافية السائدة أساسي من جهة أخرى. ومن المعروف أنه في الوقت الذي وقع فيه تلطيف التعارض بين الكنيسة والعالم والتخفيف من التقابل بين ملكوت الله وملكوت قيصر في الشرق فأدمجت الكنيسة في الإمبراطورية البيزنطية، عمل الغرب بفضل التأويل الأغسطيني للتاريخ والعالم على الفصل التام بينهما. وإذا كانت الدراسات الحديثة قد استدلت على تهاافت الحجج التي تستعمل في الشرق لتبرير طرد الفلسطينيين واحتلال أرضهم بدعوى الدفاع عن الذاكرة والهوية والتراث والارتباط بالجغرافيا طورا وبجذور عرقية قبلية مرتبطة بشجرة نسب (يعقوب) أو بمصدر نبوي (موسى) أو بأب مسكوني (ابراهيم)⁽³⁾، فإن الغرب المسيحي مطالب اليوم بالابتعاد عن هذا المزلق الخطير الذي يجعل المسائل السياسية الخاضعة للقانون الدولي رهينة الدين ومرتبطة بأفكار لا أساس لها من الصحة. ولاشيء في نظرنا أنجح في هذا المضمار من العودة إلى التجسد أساس المسيحية.

Christopher Dawsen, La religion et la formation de la civilisation occidentale, Paris, (1 Payoy, 1953, 6.

(2) Christopher Dawsen، المصدر نفسه، 75.

Albert De Pury, L'argumentation biblique des annexionnistes israéliens : Que (3 répondre ? Revue d'études palestiniennes, 21, 1999

4) الكتاب المقدس شرقي وكوني معا والمسيحية كونية أو لا تكون.

أول ملاحظة نسوقها على بدايتها هي أن المسيحية ديانة شرقية من فلسطين، وأن كل أعلامها شرقيون يهود. فيسوع يهودي من أم وأب يهوديين مريم ويوسف، وكل تلاميذه يهود. وبولس رسول الأمم يهودي. وبطرس الصخرة التي انبنت عليها الكاثوليكية في روما يهودي شرقي. والعهد الجديد رغم لغته اليونانية كتاب شرقي. والمسيحية باعتبارها دين خلاص تعد الإنسان بتحريره من حتمية القدر والموت بعيدة عن ديانات الغرب. إنها أقرب من الديانة الفرعونية المؤمنة بأوزيريس Osiris وإيزيس Isis ومن ديانة سوريا ديانة أدونيس والآلهة الشمسية وديانات الخلاص الشرقية منها إلى دين أوروبا القديم دين المدينة، تعد الإنسان بتحريره من حتمية القدر والموت ومن الخطيئة والسقوط ولا تقتصر على تنظيم حياته في فضاء محدود.

أ) أسلوب يسوع : الابتعاد عن التجريد والتنظير.

وإذا نظرنا إلى خطاب يسوع وجدناه شرقي المقومات بعيدا عن التجريد والتنظير. يتصدى لفهم ما هو عام من خلال أمثلة فردية كثيرا ما يعبر عن محتواها بالسؤال وبأمثال محسوسة المحتوى مرئية الأفكار دون تعقيد. فإذا أراد التنديد بعجرفة الفريسيين قال ببساطة: "لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك؟ وأما الخشبة التي في عينك فلا تفتن لها؟" (متى، 3، 7)، وإذا أراد مقاومة عقلية الثأر والانتقام قال: "من لطمك على خدك الأيمن، فاعرض له الآخر" (متى، 39، 5) وإذا أراد التعبير عن البر ومقاومة الرياء قال ببساطة: "فإذا تصدقت، فلا تعلم شمالك ما تفعل يمينك" (متى، 3، 6)، وإذا لفت الانتباه إلى الأمور الخطيرة كانت الفكرة مشهدة تنطق بها الصورة دون حاجة إلى التحليل والتجريد والتفلسف. فدخل ملكوت الله على ذوي المال عسير صعب تماما مثل دخول الجمل ثقب الإبرة و"لأن يمرّ الجمل من ثقب الإبرة أيسر من أن يدخل الغني ملكوت الله" (مرقس، 25، 10)، وسلوك الكتبة والفريسيين المرفوض تعبر عنه صور عديدة مأخوذة من الواقع: قادة عميان أشبه بالقبور المكساة ظاهرها جميل وباطنها عظام ونجاسة يُصقون الماء من البعوضة ويبتلعون الجمل (متى، 23). وإذا تجاوزنا لغة العهد الجديد المعبرة عن الشرق إلى شاعريته لم نجد تركيزا على ضرورة التمسك بقواعد شكلية صارمة كما

هو الشأن في الشعر اليوناني ولا تتظيرا متعلّقا بالأغراض والفنون الأدبية مثل الدراما والملهاة رغم وجودهما القوي في العهد الجديد. فالصور مثل اللغة بعيدة عن التعقيد لاعلاقة لها بالفن اليوناني، شرقية في رؤاها حادة في واقعيتها لافتة بعناصرها عجيبة في عناصرها لا تخضع العلاقات بين مكوناتها إلا لمنطق خفي رغم غرابتها في الظاهر. فالمدينة المقدّسة، القدس الجديدة مدينة الله تبدو نازلة من السماء من عند الله، مهياة مثل عروس مزيّنة لعريسها (رؤيا يوحنا، 21) بخلاف بابل مدينة الشيطان أم الزواني ورجاسات الشيطان الآيلة إلى الزوال والاندثار، إنها الزانية المشتهرة الراكبة على عرش وحش قرمزي مغشّى بأسماء تجديف، له سبعة رؤوس وعشرة قرون تلبس أرجوانا وقرمزا، متحلّية بالذهب والحجر الكريم واللؤلؤ، بيدها كأس من ذهب ممتلئة بالقبايح ونجاسات بغائها (يوحنا، رؤيا، 17). وإذا أراد بولس تصوير الصراع الحاصل أثناء ظهور المسيح مع قوى الشر المعادية استعمل صورة المرأة بإخراج جديد وعمد إلى الطبيعة فأخذ منها بعض عناصرها: اللتين والكواكب وجعل المشهد بمثابة مقطع سينمائي تختلط فيه الألوان والأصوات وتركب الصور فيه بطريقة غريبة عجيبة معبّرة عن الفوز في النهاية، فيه بدت المرأة ملتحفة بالشمس والقمر تحت قدميها، وعلى رأسها إكليل من إثني عشر كوكبا، حاملا تصرخ من ألم المخاض. وظهرت في السماء آية أخرى : تتين كبير أشقر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجرّ ثلث كواكب السماء، فألقاها إلى الأرض. ووقف أمام المرأة التي تؤشك أن تلد، حتى إذا وضعت ولدها ابتلعته (رؤيا يوحنا، 12).

ب) محتوى تعاليم يسوع، الشفافية والكونية.

وإذا تجاوزنا الشكل ووقفنا عند المحتوى وجدنا أن العهد القديم كتاب شرقي أيضا لاعلاقة له بالمفاهيم اليونانية السائدة ولكن تلك السمة لم تكن حاجزا يمنعه من أن يكون كتابا كونيا مفهوما في أي مكان وزمان. فالآراء التي تقدم فيه بطريقة يفهمها الجميع مهما كانت ثقافتهم وموقعهم الجغرافي تخرج عن الأفق الفكري اليوناني ولا تتبنى الرؤى السائدة ولكنها في نفس الوقت لا تبدو مستغلقة عصية الفهم على اليونانيين وعلى غيرهم. وفي خطبة يسوع على الجبل : طوبى لفقراء الرّوح وصلاته : أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك

ووصايا : لا تقتل لا تزني لا تسرق لا تشهد بالزور وتعاليمه الحكيمية والأخلاقية وأمثاله ما يدل على ذلك. فقد تمكن يسوع من تقديم نظرة جديدة إلى الإنسان والتاريخ والأخلاق لعللاقة لها بما هو موجود في الغرب وعبر عن الحكمة البشرية انطلاقاً من محيط زراعي شرقي دون أن يكون لتلك السمة الشرقية الفلسطينية أي تأثير لأنّ ما دعا إليه كوني بشري تتفق عليه كل فلسفات العالم. "لاتخافوا . . . فما من مستور إلا سيكشف، وما من مكتوم إلا سيعلم . والذي أقوله لكم في الظلمات، قولوه في وضح النهار. والذي تسمعون به يهمل في آذانكم، نادوا به على السطوح" (متى، 26، 10-27). "زمرنا لكم فلم ترقصوا، ندبنا لكم فلم تضربوا صدوركم" (متى، 17، 11). "من الثمر تعرف الشجرة" (متى، 33، 12). "لكل يوم من العناء ما يكفيه" (متى، 34، 6). "من فيض القلب يتكلم الإنسان" (متى، 34، 6). "العامل يستحق أجرته" (متى، 9، 10). "لا تدينوا لئلا تدانوا" (متى، 1، 7). "إن فسد الملح فبماذا يملح" (متى، 13، 5). "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين" (متى، 24، 6). "من ثمارهم تعرفونهم" (متى، 15، 7). "من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع" (متى، 13، 23) . . .

ت) كونية الرافد الشرقي وعدم تقيده بالجغرافيا.

ليست حكم الكتاب المقدس شرقية أو غربية بل كونية وإن التقابل مع التقليد اليوناني الروماني القديم لا يقف فقط عند هذا الحد، بل يتعلّق بمفاهيم أخطر مرتبطة أساساً بالعقيدة المسيانية ⁽¹⁾ التي قدمت يسوع على أساس أنه مخلص وبتأثيرها في فهم الوجود البشري ⁽²⁾. فقد كانت المسيانية الشرقية غريبة عن الفكر اليوناني ولم يتمكن الغرب من تمثّل يسوع إلا بعد أن هيلنه أي غيّره وأخرج عناصره الأساسية من الأطر المسيانية الأخروية لينظر إليه من خلال المرجعية الروحية اليونانية. فحوّل لقب المسيّ Messie المنقول عن العبرية والآرامية والمتعلّق بتكريس الملك إلى لفظة خريستس اليونانية وجعلها إسم

(1) Marcel Simon et Benoît André والمصدر نفسه، 104 وانظر قائمة المراجع الهامة والعرض الدسم في هذا الكتاب.

تسيطر على العهد القديم فكرة متأنية من العهد القديم ومن الميثولوجيا الشرق أوسطية تعتبر أنّ مسار العالم درامة يقودها الله وأن نهايته الآن وشبكة وأن الآخرة ستكون بمثابة درامة كونية كبيرة فيها يبعث الموتى وتقع محاسبة الجميع. وفي هذا الإطار يدرج المسيّ باعتباره مخلصاً وحاكماً

(2) Rudolf Bultmann, Foi et compréhension, l'historicité de l'homme et de la révélation, Traduit par André.

المسيح ثم أسقط لقب يسوع الأسطوري والأخروي "ابن الإنسان" وعوّضه بالرّب Kyrios وبهذه الكيفية كان التعارض بين الشرق والغرب واضحا ويصعب الإقرار بالتواصل بينهما رغم التمسك بنفس البنية الدينية. ومع ذلك فإنّ تأثير الشرق والمسيحية الديانة الشرقية الأصل في التقليد اليوناني الروماني كان قويا ممّا يدل على قوّة الرافد الشرقي وعدم تقيّده بالجغرافيا نظرا إلى كونيته.

ث) الرؤية إلى التاريخ، من التركيز على الماضي والطبيعة إلى التركيز على الإنسان والمستقبل.

من أهم هذه التأثيرات إضفاء معنى جديد على التاريخ وعلى وجود الإنسان فيه. فلم يعتبر اليونانيون التاريخ عالما مستقلا إزاء عالم الكون الذي نظر إليه على أنه طبيعة. ولئن اهتم به المؤرخون والفلاسفة فيما بعد فإنّ مقاربتهم جعلت دراستهم له مركّزة على الماضي لا على المستقبل مثلما هو الشأن في المسيحية الشرقية. فقد اعتقد هيرودوت (ت نحو 425 Hérodoté) أثناء عرضه التاريخ اليوناني والشرق الأوسطي أنه اكتشف قانونا قارا فيه تقع المطابقة بين البشري والإلهي وقدّر التاريخ و العمل الذي يقوم به الإنسان فيه بمعايير أخلاقية. واعتبر تيسيديد (ت نحو 395 Thycudide) أنّ قوى التاريخ المحركة له موجودة في غرائز الإنسان وأهوائه وفي عناصر القوة السياسية والاقتصادية. ولم يدرس أفلاطون التاريخ البدائي إلا ليتمكّن من فهم جوهر الدولة انطلاقا من بدايتها، وعندما ركّز على مسار التاريخ المستقبلي فذلك ليبرز أنّ الدولة تسير نحو حتفها في حالة فقدان التربية والتكوين. وفي كل هذه الحالات مجتمعة لم يكن للإنسان في وجوده التاريخي دور ولم ينظر إلى الحاضر على أنه لحظة اتخاذ القرار والمسؤولية بالنسبة إلى المستقبل والماضي أيضا، واعتبر التاريخ مجرد بحث عن العناصر الأزلية القارة الفاعلة دون غيرها في حركة التاريخ والتي تلعب نفس الدور الذي تلعبه القوانين في الطبيعة دون أن يكون للتاريخ هدف (1) وللكون تاريخ (2).

لقد تأسّست المسيحية الشرقية أساس المسيحية على رؤية للتاريخ مرتبطة بنظرة إلى الوجود الإنساني ذاته. فلم يبق التاريخ مجرد صيرورة زمنية دون

(1) Rudolf Bultmann ، المصدر نفسه، 587

(2) Emile Brehier, Histoire de la philosophie, I, 489.

وجهة ودلالة، بل أصبح خاضعا لمسار وله معنى وهدف محدود عبره ينكشف حتى معنى الماضي ذاته. فنشأ تفكير حول معنى التاريخ واستفاد كبار المفكرين الغربيين مثل هيجل وماركس من المقاربة الكتابية التي جعلت للتاريخ هدفا وإن أفرغوها من بعدها الديني وحوّلوا معنى الأخرويات من المجال الروحي إلى المجال الدنيوي. وإذا كانت النظرة الكتابية للتاريخ دينية فإنّ التقسيم الذي حدّته هو الهام. وقد أمكن لكبار المفكرين اليوم أن يستفيدوا من المقاربة الكتابية بعد أن نزعوا عنها القداسة وعلمنوها. وما تصوّر هيجل وماركس ونييتشة للتاريخ إلا تصور أخروي معلمن. وإذ تبدّل معنى التاريخ بفضل المسيانية الشرقية والمنزع الرؤيوي السائد في النبوات اليهودية وفي رؤيا يوحنا، فإن معنى الوجود الإنساني قد تغيّر أيضا ووقع الانتقال من رؤية يونانية إلى أخرى مسيحية كتابية مغايرة. فأصبحت الفردية بما تتطوي عليه من حرّية واختيار ومسؤولية هي الأساس وتلاشت النظرة التي جعلت الواقع أو الوجود الحق كونيا لازميا غير متغيّر متمثلا في الروح أو الأفكار أو القوانين الأزلية التي يدركها العقل ويحرص على تطبيقها إذا أراد أن يكون لوجوده معنى.

مع الرؤية الكتابية المسيحية أصبح الوجود البشري فرديا يتحقّق من خلال القرارات التي يتخذها الإنسان في حياته ولا معنى لما هو عام لا زمني⁽¹⁾. فالماضي هو ماضيه والمستقبل هو مستقبله عليه أن يختاره بقرار فردي مع خطر الربح أو الخسارة وليس مجرد مثل عليه أن يتقيّد به. وليست حياته حالة من الحياة الإنسانية العامة يكون فيها الفردي عرضيا والكوني العام جوهريا وموته حدثا طبيعيا يتكرّر بالنسبة إلى الجميع بلا تغيّر، فالحياة حياته والموت موته والإنسان بفرديته هو المقرّر وهو الذي يتهيا باختياراته الحرة وأعماله عند الموت للحظة الحاسمة الأخروية لحظة الانفراد مع الله والحساب. ولئن فتحت هذه المنطلقات الشرقية المسيانية للمسيحي الغربي أفقا عديدة في الفكر والأدب والمعمار إذ يمكن إرجاع الترجمة الذاتية عبر فكرة الاعتراف والحساب إلى جذور مسيحية واعتبار الدراسات التاريخية الحديثة مجرد نقل أو محاكاة للمنوال التاريخي الكتابي بعد أن علّمنته أي فصلته عن جذوره المسيحية

(1) Rudolf Bultmann ، المصدر نفسه، 588

والنظر إلى الغنائية في الفن الباروكي على أنها مقاومة للقواعد الصارمة وتجاوز للكلاسيكية/التقليد اليوناني الروماني إلى نمط جمالي تلعب فيه الفردية/المسيحية دورا حاسما. ولقد لعب صلب المسيح دورا كبيرا في تغيير محتوى الفن القوطي المتعلق بالألوهية وبمفهوم الألم رغم أنه يوجد تشابه كبير في المستوى الشكلي بين الفن القوطي الحديث والفن اليوناني.

ج) المسيحية كونية رغم أنها شرقية الأصل والمسيح والإنجيل فوق الجغرافيا.

فلا يمكن النظر إلى المسيحية على أساس أنها ديانة شرقية غازية استلبت الغرب ولقنته ما لا يعلم، أو الادعاء أن المسيحية هي هوية الغرب دون غيره، فالمسيحية تبقى ديانة كونية رغم أنها شرقية الأصل ووليدة محيط زراعي بسيط عبّرت عن الروحانية التي شعر بها المؤمنون في البداية وطيلة تاريخ المسيحية ذاتها وكانت دائما صورة من روح الشعب الذي يحدّه الوسط والثقافة وبإمكانها اليوم أن تثير في قلب الإنسان الحديث نفس الأسئلة الكامنة في قلب كل إنسان وتقترح عليه أجوبة متعلّقة بمعنى الحياة وفهم أسرارها وبالمصير. . . ولئن تبناها الغرب وأصبحت ديانتته فليس من حقه أن يعتبرها هويته الخاصة . فالمسيحية والمسيح بلا هوية في العمق وكل تقييد لهما من شأنه أن يتصادم مع منطق الديانة الداخلي الذي هو كوني بالأساس غير مرتبط بجنس أو أمة دون أخرى وأن يتناقض مع هوية المسيح العميقة. فليس المسيح ملك الشرق أو الغرب يمكن أن تحتكره ثقافة ما أو قارة دون أخرى. إنه حقيقة فريدة يعسر إدراكها من وجوه كثيرة، فهو أمل الثوار والمصلحين، يسحر رجال الفكر والبسطاء وينادي الموهوبين وقليلي المواهب، ويحثّ على التفكير علماء اللاهوت والملحدين على السواء⁽¹⁾. ولقد حار المسيحيون في اكتناه حقيقته ولئن اختلفوا كثيرا في ذلك فإنهم اتفقوا فيما بينهم على أن المسيح سرّ وأنه لا يمكن كنيسة أو ثقافة أو قارة أن تحتكره وأنه في حد ذاته غير قابل للاحتكار.

Hans Küng, Etre chrétien, Paris, Seuil, 1978, 158. (1)

ح) عقيدة التثليث والتجسد أساس هوية أوروبا : الاختلاف والتنوع في نطاق الوحدة.

لئن كان لا يمكن إنكار العلاقة الجدلية بين المسيحية وأوروبا ومساهمة الدين المسيحي في بناء الوجدان والحضارة الغربيين، فلا يمكن مع ذلك اعتبار اليهودمسيحية هي الأساس وغيرها فروع . فإذا كانت علاقة أوروبا بالمسيحية قوية فإن علاقتها بها انبنت أحيانا على التناقض والتعارض. ومجرد التذكير بالحروب الدينية والكونية وبتصادم الايديولوجيات الأوروبية وما أدت إليه من فظائع يدل على ذلك ومن شأنه أن يؤدي بنا إلى مراجعة العديد من المسلّمات. فمن أي أوروبا نتحدث ؟ وما هي الفترة المعيار التي ينبغي اتخاذها مقياسا ؟ وهل يمكن اعتبار أوروبا مسيحية دون الوقوف عند التعابير المختلفة للمسيحية ذاتها ودون التذكير بالجذور غير اليهودمسيحية التي تغذّت منها. "وإذا كان لتاريخ أوروبا جذور عميقة، فمن الخطأ نسيان الأرض المتجذّرة فيها، لأنه ما بعد الجذور، هناك حقا فروع وأوراق، زهور وثمار ⁽¹⁾. " إن هوية أوروبا العميقة تاريخيا تبنيها عقيدة التجسد ذاتها لا القوانين في الدساتير. وما كان التجسد مرتبطا بالجغرافيا ومعبّرا عن الانغلاق وحاصرا للنعمى في مكان دون آخر. فالنعمى ليست موجودة فقط فيما وراء البحار كما قال في السابق كبريانوس أسقف قرطاج (ت نحو 258) عندما أراد أن يدافع عن كنيسة افريقيا. ويؤكد التثليث السر المسيحي الرئيسي بقوة مبدأ الاختلاف في الوحدة لا مبدأ التميز والاقصاء والاحتكار. وما إن جسّم هذا السر في الواقع والتاريخ بفضل تجسد المسيح حتى أصبح مصدرا قويا لتبرير كل الاختلافات وإضفاء القيمة على التنوع الذي تكتنّه الحقيقة. وبدون الاتحاد بين الحقيقة والحرية حرية التجسد والفداء، لا تستطيع الكنيسة أن تقنع بالإنجيل وبهوية أوروبا المسيحية. فلا مجال للتفرد بالديانة ولا مجال للاستحواذ على أوروبا انطلاقا من حقائق لم تثبت تاريخيا وهي في كل الحالات معارضة للمسيحية الدين الذي لا يعترف بالحدود والجغرافيا ولا يتقيّد بالزمان.

Francesco Follo, L'Europe des nations :histoires,cultures,religions,La Documentation (1 Catholique,2294,578.

IV - غلق الحدود ثقافيا ورعويا : منع الزواج من المسلمين والمسلمات ومقاومة الإسلام ومسيحية الاجتماعية.

1) المقاربة المسيحية.

أ) من المفارقات اللافتة التحذير من الزواج المختلط رعويا والسماح بالزواج المثلي قانونيا.

من اللافت أنه في الوقت الذي قنّنت فيه أوروبا الزواج المثلي وأقرّته ظاهرة اجتماعية يعترف بها القانون حفاظا على حقوق الإنسان، فإن الكنائس الأوروبية عبّرت من خلال تحذير المسيحيين والمسيحيات من الزواج من المسلمين والمسلمات عن تجاهلها لظاهرة موجودة في أوروبا هي أهم من الزواج المثلي عددا وخطورة وتحدث يوميا رغم تحذير الكنائس المستمر. ولا نعني بالتجاهل الإهمال بل معالجة الإشكاليات المطروحة على العالم الحديث بعقلية منافية لأبسط قواعد الحداثة فكريا وبأسلوب ملتو أخلاقيا يدسّ السم عبر الدسم ويسعى إلى الدفاع عن الذات على حساب الآخر دون تقدير الأوضاع الاقتصادية والسياسية والتاريخية التي جعلت العامل المسلم في حاجة إلى أوروبا وأوروبا في حاجة إلى خدماته ودون احترام للمشاعر الإنسانية. والغريب أنه في الوقت الذي تقبل فيه المرأة المسلمة على الزواج بغير المسلم دون أن تنتكّر لدينها أو تكون في تعارض معه بفضل المراجعات النقدية الحديثة المتعلقة بموقف القرآن من زواج المسلمات بغير المسلمين ودون أن تعير اهتماما للتحفظات التي أبدتها بعض الدول الإسلامية على المواثيق الدولية المنادية بحق المرأة في الزواج ممن تريد دون قيود متعلقة بالدين والعرق واللون....، فإن الكنائس الغربية تسعى عبر مواجهة تيار التقارب البشري والانفتاح على المغاير في المستوى العاطفي وتجاوز الواقع إلى المناداة بما يرفضه المؤمنون المسلمون والمسيحيون معا متمسكة بمنطلقات نظرية تحرر منها جزء كبير من المؤمنين أنفسهم.

ولئن كان ذلك أمرا مستغربا على الأقل في المستوى الرعوي فإنه يصبح خطرا في المستوى النظري لأن فيديريكية الكنائس الأوروبية قد جعلت هذه المرة الثقافة والتاريخ لا الجغرافيا حاجزا بين المؤمنين وانشغلت بتزايد عدد

المسلمين في أوروبا وبالأخطار المتولدة عن تحول المسلمين من أبناء الجيل الثاني والثالث إلى مواطنين أوروبيين بصفة قانونية من حقهم الدفاع عن هويتهم الإسلامية في الوسط الأوروبي. وقد عمدت فيدرالية الكنائس الأوروبية أثناء تصديها لدراسة ظاهرة الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين إلى عرض مواقف مختلف الكنائس المسيحية من الزواج عامة ومن الزواج المختلط خاصة وبيّنت المنطلقات الكتابية والقانونية ثم عرضت مواقف المذاهب الفقهية الإسلامية من الزواج مذكرة بمواقف القرآن. وأنهت الوثيقة بإرشادات رعوية موجهة للكنائس حتى تتمكن من التعامل في المستوى الرعوي مع هذه الظاهرة بحكمة وتنسيق.

ب) الزواج في المسيحية ما عدا البروتستنتية سر مرتبط بسر الكنيسة ومسألة إيمانية أساسها عقيدة التثليث.

تجمع الكنائس ما عدا البروتستنتية على أن الزواج سر مرتبط بسر الكنيسة وهو اتحاد أسرارى بين المرأة والرجل شبيه باتحاد الكنيسة بالمسيح أساسه التثليث. ومن ينخرط فيه بهذه الصفة تقع مباركته من قبل الله المثلث والواحد ويتحول بيته إلى كنيسة ولا فرق في هذا السياق بين ليترجيا الزواج وليترجيا التعميد أو الافخارستيا. فالزواج أمام الله يمثل اتحادا في المسيح بفضل الروح القدس وفيه يبدو الله قريبا بصفة حقيقية تماما مثلما هو الأمر في الافخارستيا. وإذا كانت الكاثوليكية ترى أن الزواج مسألة إيمانية لا قانونية إذ لا يكفي اعتبار الزواج حياة أساسها الحب، فإن الأنجليكان والبروتستنت يدرجونه بالعكس ضمن نظام الخلق أو الطبيعة لا النظام الفائق الطبيعة أو نظام النعمى. ولذلك لا يعتبره البروتستنت سرا ويرون أنه هبة إلهية لجميع الخلق مرتبطة بجميع الناس ما دامت من مشمولات نظام الخلق. وقد ترتب عن هذه المنطلقات مواقف متباينة من الزواج المختلط ومن الزواج بين مسيحيين ينتمون إلى طوائف مختلفة. ففي نظر الأورثودكس يعتبر الزواج بين المسيحي الأورثودكسي وغيره من المسيحيين والزواج المختلط ممنوعا قانونيا. ولكن الكنيسة الأرثودكسية بالاعتماد على مواقف رسولية وردت في رسالة بولس إلى

الكورنثيين (12، 7-16) ⁽¹⁾ وتطبيقاً لمبدأ الاقتصاد المتمثل في اختيار الحل الذي يبدو لها أفضل والتصرف بالطريقة التي تراها أقرب إلى تدبير الله الخلاصي ولأسباب إنسانية أجازت خلافاً للكنائس الأورثودوكسية غير الخاضعة لسلطة البطريرك Eglises autocéphales والكنيسة الرسولية الأورثودوكسية الأرمنية الزواج بين الأورثودوكسي والمسيحيين الآخرين والزواج المختلط شريطة تربية الأبناء تربية أورثودوكسية. ولا تختلف الكاثوليكية كثيراً عنها. فهي تسمح بالزواج المختلط شريطة الحفاظ على مقومات الإيمان المسيحي. وينص القانون 1071 من مدونة القانون الكنسية على أنه لا يمكن حضور زواج من رفض الإيمان الكاثوليكي علانية إلا بترخيص الأسقف المحلي، والقانون 1086 على بطلان الزواج بين شخصين واحد معمد في الكنيسة الكاثوليكية ومنخرط فيها ولم يغادرها بفعل صريح ومن ليس معمداً ⁽²⁾. أمّا الكنائس الانقليكانية فإنها وجدت نفسها مجبرة بحكم القانون الانقليزي الواضح على عقد الزواج بين من يسكنون في نفس الأبرشية دون أن تتساءل إن كان المتزوجان معمدين أو مسيحيين. ولذلك كان الزواج المختلط ميسوراً نسبياً لهذه الأسباب القانونية ولأسباب لاهوتية أخرى إذ يعتبر الزواج هبة إلهية لجميع الناس مرتبطاً بنظام الخلق وبالتالي متجذراً في الحياة البشرية. ولا يختلف البروتستانت كثيراً عن الأنجليكان لأنهم وإن اعتبروا الزواج مؤسسة مقدسة فإنهم لم يعتبروه سراً.

ت) الانزلاق : من التحليل إلى التحذير.

إن هذا العرض رغم تركيزه على المسيحيولوجيا والأسرار والتثليث يبدو مقبولاً. ولكن عند عرض النظرة الإسلامية المتعلقة بالزواج وضبط التعليمات

(1) الشاهد الكتابي مأخوذ من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (7، 12-14) وأساسه عدم فسخ الزواج من غير المسيحي أو المسيحية عسى أن يقع تسميح الزوج الوثني أو الزوجة. يقول بولس : "إذا كان لأخ زوجة غير مؤمنة ارتضت أن تساكنته، فلا يتخل عنها، وإذا كان لامرأة زوج غير مؤمن ارتضت أن يسكنها، فلا تتخل عن زوجها لأن الزوج غير المؤمن يتقدس بزوجه، والمرأة غير المؤمنة تنقدس بالزوج المؤمن".

Code de droit canonique, texte officiel, Librairie Editrice Vaticane, M-DCCCC- (2 LXXXIII.

الرعية للكنائس يقع ما يشبه الانزلاق من مجرد التحليل الموضوعي اللاهوتي إلى التحليل الموجّه الذي يبدو فيه التركيز على السلبيات والفوارق اللاهوتية غير القابلة للمساومة والمسامحة بارزا والتحذير واضحا. وقد وقفت الوثيقة عند بعض البنود المتعلقة بالزواج في البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام الصادر سنة 1982 وبالأخص البند 19 المتعلق بحق بناء الأسرة والبند 20 الذي يضبط حقوق الزوجة ولكنه لا ينصّ على حقها في تسيير مشاريعها الخاصة (1)، وعرضت في نفس الوقت مواقف القرآن والتقليد من الزواج حسب الفرق والبلدان. وحسب الوثيقة يعتبر الزواج الإسلامي مسألة قانونية هدفه الحفاظ على سلامة الأسرة. ولهذا السبب رفضت المذاهب السنية ماعدا الشيعة زواج المتعة. كما تعتبر تعدد الزوجات مسموحا به قرآنيا وهو سائد اليوم في جل البلدان الإسلامية ماعدا تركيا وتونس وإن كانت الظروف الاقتصادية قد جعلت الزواج بواحدة هو السائد. وحتى يشرح واضعو النص مواقف الشريعة الإسلامية من الزواج المختلط ذكروا دون سبب وجيه بالتمييز الذي يقيمه الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين المصنفين إلى قسمين : أهل الكتاب والكفار المشركين وتأثير الجغرافيا في ضبط نوعية التعامل معهم. فإذا كانوا في دار الإسلام عوملوا معاملة أهل الذمة وإذا كانوا في دار الحرب طبق عليهم قانون الجهاد.

2) المقاربة الإسلامية من خلال النصوص القرآنية المتعلقة بالزواج من غير المسلمين وتأويل الفقهاء لها

أ) المنع والإباحة

يحتوي القرآن على نصين هامين يضبطان شروط الزواج من غير المسلمين. النص الأول هو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَئِمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجِبُكُمْ ﴾ (2، 221) وفيه المنع واضح. أما النص الثاني فقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ

(1) البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام، دراسات إسلامية مسيحية، 9، روما، 1983، 15.

أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴿ (5، 5). وفيه التحليل صريح. ورغم أن بعض الفقهاء قد حاولوا في البداية تطبيق الآية الأولى على النساء المسيحيات لأنهن تؤمنن بالتثليث وبالتالي فهن من المشركات مثل البوذيات والمجوسيات. . . ، فإن البعض الآخر ومنهم عبد الله بن عمر (ت 73 هـ) وربما الشافعي (150 هـ - 204 هـ) حرّم الزواج من المسيحيات اللاتي تؤمنن بألوهية المسيح فقط. ومع ذلك لم يحافظ التراث على التدقيقين معا بل أصبحت نفس الآية تستعمل للدفاع عن الزواج من المسيحيات. إلا أن الفقهاء قد أضافوا بعض التدقيقات. فالشافعية والحنابلة والمالكية لا يبيحون الزواج إلاّ من الحرّة وتعتبر المذاهب الأربعة الزواج مكروها إذا كانت المرأة تسكن في بلد غير إسلامي. أما في خصوص ديانة والدي المرأة المسيحية فإنّ الحنابلة يشترطون أن يكون والدا المرأة من أهل الكتاب في حين يقتصر الأحناف على واحد ويفضّلون أن يكون هو الأب. وفي كل الحالات فالإتفاق حاصل على أنّ المرأة المسلمة لا تستطيع أن تتزوّج زواجا شرعيا إلاّ من مسلم. وإذا تزوجت عن حسن نية ودون معرفة مسبقة بدين زوجها يلغى الزواج ويعتبر غير شرعي. أما إذا تزوّجت من غير المسلم عن قصد ومعرفة فتجلد أربعين جلدة وفي نظر المالكية يعتبر الذمي في حل من حماية المسلمين لأنّه نقض العهد ولذلك يمكن أن يطبق عليه الحد. وخلافا للتأويل السني المتعلّق بإباحة الزواج من الكتابيات فإنّ الشيعة الإمامية يرون أنّ العقد لا يكون شرعيا إذا اقترن الشيعي أو الشيعية بغير المسلم أو المسلمة وتحرم بعض الطوائف منها ⁽¹⁾ الزواج من الكتابيات تحريما شديدا دون أن يصل بهم الأمر إلى استعمال العنف ⁽²⁾. ولذلك يبقى زواج المتعة هو الحل الوحيد وليس للمرأة حقوق في الميراث إلا إذا نصّ العقد على ذلك.

(ب) حقوق المرأة غير المسلمة مهدورة غير مضمونة.

لم تسكت الوثيقة عن بعض الاختلافات الفقهية الهامة المتعلقة بحقوق المرأة غير المسلمة في الميراث وفي التمسك بدينها وتقاليدها وبالطلاق

(1) عبد الكريم زيدان، أحكام الذمّيين والمستأمنين في دار الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 344، 1982

(2) القناؤون شعبة من شعب الفريزيين يقتلون من تزوّج بامرأة أرامية .

وحضانة الأبناء. فإذا كانت الشافعية تلزم الزوجة بالتكليف مع التقاليد الإسلامية فإن المالكية والأحناف يتفقان على أنّ الزوج المسلم لا يمكنه أن يمنع زوجته من أكل لحم الخنزير وشرب الخمر والاختلاف إلى الكنيسة. إلا أنّ الحنابلة يرون أنه بإمكانه أن يمنعها من مغادرة البيت زمن الأعياد المسيحية ويمكنه أن يمنعها من حضور القداس وإن كان لا يستطيع أن يمنعها من شرب الخمر. وفي المقابل فإن الشيعة الذين يجيزون زواج المتعة يرون أنّ المحظور على المسلمة ينطبق على الزوجة غير المسلمة.

وقد نَبّهت الوثيقة إلى وجوه التمييز بين المرأة المسلمة وغيرها أثناء الطلاق. فالطلاق يخضع عموماً للإجراءات التقليدية، ولا يمكن للمرأة المسيحية المتزوجة من مسلم أن تحصل على حق حضانة أولادها إلا عند بلوغهم سن الرشد المحدّد بين السنة الرابعة والسابعة. وبعد هذه المدة تتحوّل الحضانة آلياً إلى الأب خلافاً لما هو معمول به لدى المسلمة، إذ تحافظ على حق الحضانة إلى سن البلوغ. كما أنه ليس من حق المرأة المسيحية أن تعهد بحق حضانة أطفالها لنساء قريبات لها خلافاً للمسلمة. وما إن تغادر الزوجة المسيحية دائرة زوجها القديم يسقط حقها في الحضانة. وتواصل الوثيقة التركيز على النقاط الحساسة بالاعتماد على الفقه لا على القوانين الحديثة التي أصبحت سائدة في العديد من الدول الإسلامية، فتعتبر أنّ المرأة غير المسلمة المتزوجة من مسلم لا يمكنها أن ترث زوجها إلا إذا ترك وصية في الغرض⁽¹⁾ وترى أنّ هذا الاستثناء مصدره السنة التي تقرّ أنّ اختلاف الدين يلغي الميراث من الطرفين⁽²⁾. وحتى إن وجدت حلول أخرى لدى المذاهب الفقهية فهي ليست دائماً عادلة وفي صالح المرأة من دين مسيحي. فالأحناف الذين يخالفون جميع المذاهب يشترطون اعتناق الأرملة الإسلام بعد وفاة زوجها ومطالبتها بحقها قبل قسمة الميراث. ويمكن حسب الشيعة أن تدرج المرأة من أصل مسيحي في

(1) من الضروري التنبيه إلى أنّ اختلاف الحلول مرتبط باختلاف المذاهب. فبالنسبة إلى السنة الوصية باطلّة إذ لاوصية لوارث، وتصح الوصية بثلث التركة بالنسبة إلى المسلم الشيعي. ...
(2) هذه القاعدة غير مرتبطة بالإسلام وهي مطبقة الآن في لبنان نتيجة ارتباط القوانين بالانتماء الطائفي، فاختلاف الدين مانع في هذا البلد من موانع الإرث حتى بين الزوج وزوجته والابن وأبيه، انظر، عبد الله لحد وجوزف مغيزل، حقوق الإنسان الشخصية والسياسية، بيروت، منشورات عويدات، 1973، 31.

وصيتها أبناءها المسلمين دون غيرهم. وإذا أراد المسلم أن يفى زوجته الكتابية حقها ويضمن لها كرامتها بعد موته يمكنه اتباع الطرق المتعلقة بالهبة لا بالميراث. وبإمكان المسيحية حسب الأحناف أن تتحصل على ثلث التركة (1).

(3) مسؤولية الكنائس الرعوية.

(أ) منطق التحذير والتخويف رغم تحررية المذاهب الفقهية النسبية.

إلى حد الآن يمكن الإقرار بأن أصحاب الوثيقة قد اكتفوا بعرض المقاربة المسيحية والإسلامية من الزواج بصفة موضوعية. ورغم الاختلاف الجوهرى بين المقاربتين وإن ارتبطتا بالإنجيل والقرآن إذ يبدو الزواج في المسيحية مرتبطا بالتثليث وبسر التعميد والكنيسة والافخارستيا ومسألة متعلقة بالإيمان والأسرار خلافا للإسلام الذي يبدو فيه الزواج مجرد مسألة قانونية مستندة إلى مرجعية دينية عامة لاعلاقة لها بالعقائد أو بالأسرار، فإن الصعوبات التي تتعرض لها المرأة المسيحية المقبلة على الزواج من مسلم تعود إلى طبيعة الشروط الإسلامية ذاتها ، وقد ضبط الفقهاء منذ البداية حقوقها وواجباتها حتى تكون على بينة من أمرها بل سمحت لها بعض المذاهب الفقهية بحريات معتبرة وحقوق أساسية تتعلق بحقها في المحافظة على عقيدتها وطقوسها وحتى على الأعمال التي يحرمها القرآن صراحة مثل شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. ولا تبدو المرأة المسيحية المتزوجة من مسلم أكثر غبنا من المسلمة ذاتها فوضع المرأة متشابه في الثقافات الزراعية القديمة وفي الكتب المقدسة ذاتها (2). إلا أن اللآفة هو الإطار النظري الذي نزلت فيه الكنائس هذه المسألة والتوصيات التي ضبطتها وحددتها حتى لا تقع المرأة المسيحية في الفخ

(1) انظر بالنسبة إلى المسائل الفقهية مؤلف ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد. كتاب الميراث والهباء.

(2) نقتصر على موقف بولس المشهور في هذه المسألة. فقد دعا المرأة إلى ضرورة الخضوع لزوجها مثلما تخضع للرب وأقام مقارنة لافتة بين المسيح والكنيسة والمرأة والرجل. فإذا كان المسيح هو رأس الكنيسة التي تعتبر جسده فإن رأس المرأة هو الرجل. وإذا كان خضوع الكنيسة لمخلصها المسيح واجبا فإن خضوع المرأة للرجل مخلصها واجب أيضا. جاء في رسالة بولس إلى أهل أفسس (5، 21-24) : "ليخضع بعضكم لبعض بتقوى المسيح، أيها النساء اخضعن لأزواجكن خضوعكن للرب، لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلصها، وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهن في كل شيء".

والتبرير الذي استندت إليه لتتدخل باسم مسؤوليتها الرعوية في مسائل شخصية هي من حقوق الإنسان الأساسية ومن مشاغله الشخصية الحميمة التي لا دخل لأي مؤسسة فيها ولو كانت الكنيسة.

(ب) وجود المسلمين في الغرب : تهديد للمسيحية وله انعكاسات على الأمن.

لقد اضطرت الكنائس إلى التعرّيج على التصنيف التقليدي الذي يقيمه الفقه الإسلامي في المستوى النظري بين دار الحرب والإسلام ودار الصلح. ورغم أنّ وضع المسلم العملي اليوم يناقض وضعه النظري في النصوص إذ هو في موقع المقهور لا القاهر فإن الكنائس ذكرت بهذا المعطى عساها توحى بالتمييز الذي أقامه الفقهاء قديما وبالأخطار الناجمة عن إمكانية تطبيقه اليوم. وقد قرنت هذا العنصر النظري الموحى بالتمييز بآخر عملي يتعلّق بالحضور الإسلامي في الغرب وبالمشاكل التي يتسبّب فيها هذا الحضور على المستوى الاجتماعي العددي والنفساني. ذلك أنّ تحول الجالية الإسلامية إلى أغلبية في بعض البلدان يمكن أن تكون له انعكاسات على المستوى النفسي تتعلّق بالأمن والتهديد. ولذلك فإن مسؤولية الكنيسة الرعوية المتجذّرة في الإنجيل كبيرة وهي بحكم مسؤوليتها المتعلقة بوجود المجموعة المسيحية Ad intra et ad extra مجبرة على معرفة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية معرفة دقيقة وعلى تجديد مقارباتها الرعوية نتيجة الوجود الإسلامي اللافت في أوروبا واطّراد ظاهرة الزّواج المختلط وتكثيف مكاتب الإرشاد والتوجيه.

(ت) الزواج المختلط والمراجع الثقافية المتقابلة : الحذر واجب وتنبيه الغافلين ضرورة.

ألحّت الوثيقة على التباين الثقافي بين المرجعية الثقافية الإسلامية والمسيحية وعلى الموقع المختلف الذي تحتله المرأة في الثقافتين، وأشارت إلى أنّ التشريع والتقاليد السائدة في البلدان ذات الأغلبية الإسلامية خطيرة وحاسمة حتى بالنسبة إلى المسلم المتحرّر الذي لا يتبنّى نظريا تلك القيم. كما أنّ المسلمين المهاجرين كثيرا ما يفضلون التّزاوج فيما بينهم إذا كانوا يشكلون الأغلبية. وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أنّ المهاجرين الراغبين في عقد زواج

مختلط هم في الغالب من طلاب اللجوء السياسي ويعيشون وضعا خاصا بالنسبة إلى مجموعتهم. ومن الصعب معرفة إن كان الطرف المسلم متزوجا من قبل أم لا. كما أن الحب ليس دائما هو السبب الرئيسي. فقد بيّنت الدراسات أن عدد المسلمات المتزوجات بغير المسلمين في تزايد دون أن يشترطن اعتناق بعلهن للإسلام. مما يعني أن تأثرهن بوضع المرأة في البلدان التي يعيشون فيها ورغبتهم في التحرر من القواعد والتقاليد الكلاسيكية. ولذلك تبدو دوافع الزواج المختلط مرتبطة برغبة التحرر من التقاليد الإسلامية وبدافع الاندماج في المجتمعات الحاضرة وتذليل الصعوبات القانونية والمادية. ولذا وجب الحذر واليقظة وتنبه الغافلين.

4) المرافقة الرعوية من المهد إلى اللحد، الأسئلة الحاسمة والتدابير الوقائية.

ضبطت الوثيقة مرحلتين أساسيتين يتولى فيهما الكاهن تتبع الزواج من مجرد فكرة ومشروع إلى مرحلة الإنجاز، ويسهر فيهما بالخصوص على مختلف المراحل قبل الزواج وبعده في صورة نجاحه أو فشله. في المرحلة الأولى يساير الكاهن المترشحين للزواج ويسبر النوايا ولو عبر ما يشبه الاستطلاع البوليسي الفردي وفي الثاني يواكب المرأة المسيحية وينبئها إلى الصعوبات المتوقعة ويرشدها إلى التدابير الممكن اتخاذها في هذا المجال. ويمكن أن نعتبر من خلال النقاط التي وقع الوقوف عندها أنّ هدف الوثيقة المركزي هو الحيلولة دون حصول الزواج وذلك من خلال التركيز على الاختلاف الثقافي والديني بين المتزوجين وعلى عدم وجود تشريع موحد في البلدان الإسلامية وعلى المشاكل المتوقعة. ولذلك لم يقف محررو الوثيقة إلا عند النقاط التي من شأنها أن تزعزع ثقة الخطيبين وتغذي الارتياب بينهما. من الأسئلة التي ينبغي على المسيحية الراغبة في الزواج من المسلم طرحها على نفسها وعلى رفيق دربها المسلم منذ البداية ما يتعلق بحريتها وحقوقها ومصالحها وأنشطتها الاجتماعية ودواعي الزواج العميقة من غير المسيحي. هل يمكن للمسيحية في زواجها من المسلم أن تحافظ على هويتها ودينها ؟ وهل إن الله يطلب منها هذا الزواج وبياركه ؟ هل هي مستعدة للتنازل عن بعض حقوقها والتكيف مع تقاليد جديدة لأنّ زواجها يعني الجمع بين دينين وثقافتين

مختلفين ؟ ما هو موقفها من الضغط الاجتماعي الذي سيجعلها بمثابة الخائن لدينه وثقافته ؟ كيف يمكنها أن تخرج من المأزق الأخلاقي الذي وقعت فيه لاسيما إذا كانت تستشعر في أعماقها أن هذا الزواج سيؤدي بها إلى إنكار المسيح ؟ هل يسمح لها زوجها بالاختلاف إلى الكنيسة ومواصلة نشاطها الأبْرشي ؟ هل سيقع تعמיד الأبناء أم ختانهم ؟ وهل ستقع تربيتهم تربية مسيحية أم إسلامية أم ستتترك لهم الحرية حتى سن الرشد ؟ ماذا سيأكلون اللحم الحلال أم أي لحم آخر ؟ هل سيسمح لهم بالاحتفال "بنوال" ؟ أين ترغب في عقد القران بالكنيسة أم في غيرها ؟ وما هو موقفها إذا كانت بعض الكنائس مثل جميع الكنائس الأورثوذكسية في اليونان وروسيا ورومانيا والكنيسة الرسولية الأورثوذكسية الأرمنية والكنيسة المعمدانية بروسيا لا تعترف بهذه العلاقات ولا تباركها ؟ أثناء مراسم الخطوبة هل هي مستعدة للانفتاح على القرآن إذا كان العقد بالمسجد وما هو موقف زوجها المسلم من ضرورة التخصيص على الثالث المقدس الذي يطالب به التشريع الأنكليزي في صورة عقد القران بالكنيسة الأنكليزية ؟ في حالة الطلاق تعتبر المرأة مهزومة الجانب عموما فماذا عساها تفعل إذا حكم لها القضاء بحضانة الأبناء ولكن الأب المسلم تمكن من اختطاف الأبناء ونقلهم إلى مكان بمنأى عن المرأة و القضاء ؟ كيف ستحافظ على حقوقها عند الطلاق وهو وارد لاسيما أن نسبة الطلاق في هولندا بين غير المنتمين إلى دين واحد ضعف ما هو موجود في الزواج غير المختلط ؟ وإذا كان العقد قبل الزواج ضروريا للحفاظ على المصالح فلا مناص من الانتباه إلى أنه لا يمكن وضع بنود مضادة للشريعة والأخلاق الإسلامية كما أن المذاهب الفقهية الإسلامية مختلفة فيما بينها ولذلك على المرأة المسيحية أن تكون على بينة من ذلك لدى المختصين ؟ ولا ينبغي الاهتمام بالأُمور الدنيوية فقط فالاختلافات كبيرة بين المسلمين والبلدان الغربية عامة في خصوص مراسم الدفن وطقوسه. فالبلدان الإسلامية لا تسمح بحرق الجثث بينما يمكن للقرين المسيحي في أوروبا الغربية أن يختار بين الدفن والترمذ وعلى المرأة أن تعرف أنه لا يمكن دفنها مع زوجها في نفس القبر وأنه عليها أن تأخذ بعين الاعتبار رغبات عائلة زوجها.

إن الاختلافات اللغوية والثقافية والاجتماعية والعرقية والدينية بالخصوص كبيرة جدا بين المسلمين والمسيحيين ومن الأفضل عدم التسرع في

الزواج والتريث ولا ينبغي أن يكون الحب أعمى . فالرهانات عديدة والتحديات متنوعة. وينبغي الانتباه إلى أن المرأة في أوروبا تتمتع بالحرية وترنو إلى تحقيق كيانها وتطالب بحقوقها وبالمساواة مع الرجل. ومن الصعب على المرأة الغربية أن تجد تفهماً من قبل زوجها المسلم أو أهله لتحقيق تلك المطالب ولذلك فهي مضطرة إلى القيام بتنازلات ومرشحة لعملية استلاب. فهل يمكن للفتاة المسيحية الأوروبية بعد هذا العرض المفصل والمدقق المتعلق بالتشريع الإسلامي واللاهوت الأخلاقي المسيحي والتقاليد الثقافية والاختلافات العميقة بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية أن تتشجع وتقدم على الاتحاد مع بعلاها المسلم في الضراء لا في السراء ؟ ومن الصعب أن يكون الزواج بين المؤمنين المسلمين والمسيحيين جسرا بين المجموعتين المؤمنتين المختلفتين. ولذلك فإن الموقف الواقعي الحكيم يقتضي عدم المغامرة .

V - تأويل وتقرير

أ) التقاطع بين السياسة والدين والثقافة : لا مفر من القطيعة.

في هذه النقطة يحصل التقاطع المقاصدي بين دعوة البابا السياسية لإحكام المسيحية في الدستور الأوروبي ومطالبة فيدرالية الكنائس الأوروبية الرعوية بعدم التزوج من المسلمين والمسلمات فضلا عن الموانع العقدية اللاهوتية والاجراءات التي تتخذها الدول الأوروبية في السفارات والقنصليات ومناطق العبور في المطارات والموانئ. فالجسور بين الشمال والجنوب من جهة ومن جهة أخرى بين الملتين لم تعد عمليا موجودة وليس بالإمكان أن يقع التواصل الثقافي بين المسلمين والمسيحيين المتواجدين في أوروبا. فالجغرافيا بحكم اليهودمسيحية حاجز والثقافة بحكم التباين عائق كبير. فما العمل ؟ وهل يمكن للمجموعتين أن تتجاوزا جغرافيا وتتجاهلا وتتجاويا اجتماعيا ونفسانيا ؟ وهل بإمكان كل دين اليوم أن يطالب بأحقيقته التاريخية على الجغرافيا التي انتشر فيها ويترجم هذا الطلب قانونيا وإن كانت الحجج العلمية واهية والمبررات الأخلاقية مرفوضة. فنتحول آسيا إلى قلعة البوذية وأوروبا وأمريكا إلى حصن المسيحية والجزيرة العربية والشرق الأوسط إلى ملاذ الإسلام المحمي المنيع فتقسم الجغرافيا تقسيما روحيا على غرار التقسيم الايديولوجي مع ما يتبع ذلك من

تهديد وحرب باردة ؟ ما دور الثقافة العربية إزاء هذا الوضع المشرّع للقطيعة والمبرهن على ضرورة الانفصال وقطع الجسور القانونية والبشرية والثقافية بالمسلمين ؟ وكيف يمكن للمسلمين الموجودين في الغرب المسيحي بالهجرة أو بالولادة في الأرض الأوروبية أن يحافظوا على كيانهم بل على وجودهم في مجتمع تعمل مؤسساته الدينية على توجيه العمل السياسي والعلاقات البشرية في اتجاه القطيعة مع المسلمين انطلاقاً من حقائق وهمية ؟ وأين نحن من النوايا الطيبة نحو الإسلام والمسلمين التي عبّر عنها لأول مرة البابا النبوي يوحنا الثالث والعشرون وتبنّاها في شكل بيان لا قرار أو دستور المجمع الفاتيكاني الثاني ؟

ب) الحادثة في خطر.

ليس الخطر في أن تطالب البابوية بهوية أوروبا الإنجيلية فكل الأديان عملياً تسعى إلى المحافظة على فضاءات تعتبرها علامة على قوتها ونفوذها الحيوي وليس الخطر في أن تبرز فيدرالية الكنائس الأوروبية الفوارق العقيدة بين النظرة المسيحية للزواج وغيرها إذ الفوارق موجودة وموضوعية كما أنّ مواقف المسلمين من الزواج بين الطوائف المسلمة من جهة وبين المسلمات وأهل الكتاب لا تقل تشدداً وتقيّداً بالاعتبارات العقيدة⁽¹⁾ وليست أكثر انفتاحاً

(1) لئن حرّمت الكنائس الزواج بين مختلف الطوائف المسيحية واعتبرته ممنوعاً ولا يكون قانونياً إلا في نطاق الطائفة الواحدة فإن بعض الفرق الإسلامية قد حرّمت الزواج بين المسلمات والمسلمين المنتمين إلى فرق الإسلامية المختلفة. فالشيعة الإمامية لاتجيز الزواج من فرق أخرى كما أن الزواج بين أهل السنة والمعتزلة ممنوع في نظر بعض الفقهاء. ولئن أباح الفقهاء أن يتزوج المسلم من الكتابية فإنهم حرّموا على المسلمة الزواج من غير المسلم معتبرين أن الآية العاشرة من سورة الممتحنة (60) تنصّ على التحريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَاهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾. ويبررون المنع باعتماد منطلقات عقيدة وعمرانية. فالأديان الكتابية لا يعترف أهلها بالإسلام الذي يعترف أهله في المقابل بالأديان الكتابية وإذا أبيع زواج المسلمة من الكتابي فالولد يكون على دين أبيه وبذلك تكون المرأة المسلمة وسيلة لإنسال غير المسلمين وهذا أمر يتنافى مع غرض الإسلام. وعلى هذا الأساس تعتبر المسلمة التي تتزوج من غير المسلم مرتدة وتسري عليها أحكام المرتدين كما أنه يقع التفريق بين الكتابية التي أسلمت وزوجها الذي لم يسلم. كما يفرق بين الكتابي الذي أسلم ثم ارتد وزوجته المسلمة لاختلاف الدين. وقد فرّق الرسول بين ابنته زينب وابن خالتها أبي العاص لقيط بن الربيع القرشي المشرك ولم يردّها إليه إلا بعد أن أسلم، انظر عبد السلام الترماتيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام (دراسة مقارنة)، عالم المعرفة، الكويت، 1984.

قديمًا وحديثًا على حقوق الإنسان التي ضببطتها المواثيق الدولية وأقرت عبرها حق المرأة في التزوج دون اعتبار العرق والجنسية والدين ⁽¹⁾ شأنها في ذلك شأن اليهودية حديثًا وحتى تصرفات إبراهيم قديمًا ⁽²⁾. إلا أنّ المطالبة بإدراج المسيحية في الدستور بعد أن بشرت أوروبا المسيحية بالعلمانية وندادت الحضارة الغربية اليوم بالعلمنة والكونية وإلغاء الحواجز والتقارب بين الشعوب في ظل الثورات المعرفية والتقنية المتتالية هو المستغرب المرفوض. كما أنّ تحول التأيير الرعوي في فيديريالية الكنائس الأوروبية إلى ما يشبه التأيير البوليسي المبني على الإفراط في التحريات والاستجاب بل استتطاق المترشحين للزواج بصفة فردية وعلى انفراد وتقديم الطرف المسلم على أنه إنسان ليس كبقية الخلق وأنه بحكم ثقافته وفقهه الذي يقسم الجغرافيا إلى دار الإسلام والحرب والصلح متهم إلى أن يثبت براءته ونزاهته أي في الواقع تحرره من محيطه، هو الأمر المرفوض في الوقت الذي تنفتح فيه بعض المجتمعات الأوروبية نفسها على الزواج المثلي قانونيا وتتجاهل تنديد الكنيسة الكاثوليكية منذ رسالة البابا بيوس الحادي عشر بأنواع الزيجات الحديثة (الزواج

(1) انظر اتفاقية الرضا بالزواج، والحد الأدنى لسن الزواج، وتسجيل عقود الزواج التي عرضتها الجمعية العامة للتوقيع والتصديق بقرارها 1763 المؤرخ في 7 نوفمبر 1962 وخاصة التذكير فيه بالمادة 16 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والتتبع على أن للرجل والمرأة متى أدركا سن البلوغ، حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب العرق أو الجنسية أو الدين. د. محمود شريف البسيوني، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، القاهرة، دار الشروق، 2003، 857. والملاحظ أنّ بعض الدول الإسلامية قد تحفظت على زواج المرأة المسلمة من غير المسلم وأنّ الإعلانات الإسلامية المتعلقة بحقوق الإسلام لاتشير أثناء تعرضها إلى حقوق الأسرة والطفل وبناء الأسرة إلى الدين ووافقت على العناصر الأخرى المتعلقة بالعرق واللون والجنسية. انظر في الغرض، رضوان السيد، مسألة حقوق الإنسان في الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة الأبحاث، كلية الآداب والعلوم، الجامعة الأميركية ببيروت، السنة 46، 1998، 23.

(2) طلب إبراهيم من أقدم خدام بيته لما شاخ وطعن في السن ألا يزوّج ابنه اسحاق من الكنعانيات وأن تكون زوجته من أبناء عشيرته. سفر التكوين، 24، 1-9 وقد نهت التوراة بني إسرائيل أن يتزوّجوا من الشعوب الأخرى. انظر سفر تثنية الاشتراع، 7، 2-4: "وإذا أدخلك الربّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لترثها وطرد من أمامك أمما كثيرة، الحثّيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفريزيين والحوّيين واليبوسيين. . . فحرّمهم تحريما. لاتقطع معهم عهدا ولا ترأف بهم، ولا تصاهرهم، ولا تعط ابنتك لابنه، ولا تأخذ ابنته لابنك، لأنه يُبعد ابنك عن السيّر ورائي". وانظر أيضا، سفر عزرا، 1، 9: فسخ الزواج من الغربيات و10، انفصلوا عن شعوب الأرض والنساء الغربيات وسفر نحemia، 23، 13: "وفي تلك الأيام أيضا رأيت يهودا قد تزوّجوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات، وكان نصف أولادهم يتكلمون بلغة أشدود. . . فوبختهم ولعنّتهم وضربت منهم رجالا وتنتقت شعّهم، واستحلقتهم بالله قائلا: "لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم ولا لكم".

المؤقت، والاختباري والودادي) (1) التي تعتبرها بدعا وأضاليل وتسمح بعض الدول الإسلامية لمن لم يكن من أم مسلمة أن يترشح لأعلى المناصب في الدولة حتى وإن اعتبر هذا المنصب قديما نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا وتنضوي تحته أعمال ذات صبغة دينية مثل القضاء وقيادة الجيش. ولئن نادى عمر بن الخطاب قديما بتطليق الكتابيات "لأن في نساء الأعاجم خلاية، فإن أقبلتم (قادة الفتوح في جبهة بلاد فارس) عليهنّ غلبنكم على نسائكم" (2) فذلك لأسباب غير دينية وفي ظروف معرفية مختلفة تماما عن السائد اليوم ولا يمكن أن نعّم هذا الاجتهاد الذي زال بزوال صاحبه أو نحافظ على الدعوات الحديثة التي تنحو منحاه وتعتبر أن الفتنة بالأجنبيات والتزوّج منهن هو سبب بوار شابّات مسلمات هن أخوات لهنّ في الدين والوطن والقومية وأنّ تفضيل الأجنبيات على المسلمات أمر ينكره الدين وتأباه الأخلاق (3).

ت) ثقافة ذرائعية أساسها اختراق الذات، أو من كان اليوم معنا فهو ضدنا.

وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد انفتحت قديما على كل ثقافات العالم وتعاملت معها تعاملًا ذرائعيا هدفه خدمة الحقيقة وبناء المعرفة الإنسانية وكانت حلقة وصل وفصل في الآن نفسه بين المعرفة القديمة وطلائع المعرفة الحديثة فهل يطلب منها اليوم أن تنتكر لهويتها المعرفية وتعامل غيرها بالمثل فتتغلق على نفسها وتنتشر ثقافة القطيعة والكراهية وتضمر الثأر لنفسها وتسعى إلى أن ترد الصاع صاعين. ولئن لم يكن بإمكان الحضارة العربية الإسلامية اليوم ولأسباب موضوعية أن تقف بندية علميا وتقنيا وماديا أمام الغرب، فليس من حق المتقفين العرب والمسلمين أن يتخلوا عن المبدأ الذي أقرّه ابن رشد الحفيد عندما أسّس للتحريرية الفكرية ونادى بالانفتاح المعرفي على الآخر وبالكونية العلمية معتبرا أنّ التاريخ تقدّم مستمر وأنه : "يجب علينا أن نستعين بما قاله من تقدّمنا. . . وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة فإن الآلة

(1) بيوس الحادي عشر، في الزواج المسيحي، 20.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، 588، 3.

(3) عبد السلام الترماني، المصدر نفسه، 116.

التي تصحّ بها التّذكّية ليس يعتبر في صحة التّذكّية بها كونها آلة لمشارك لنا أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة" (1). إلا أنه مع ذلك لا يمكن للثقافة العربية إذا أرادت أن تحافظ على الوجود العربي أن تتجاهل العنف الذي تخضع له الحضارات في التاريخ دائما فهو بمثابة اللازمة أو المعطى القانوني القار المتحكّم في العلاقات. وفي كل الحالات على الثقافة العربية الإسلامية أن تتبنى القيم التي جعلت الغرب على الحالة التي هو عليها اليوم : إرادة المعرفة وإرادة السيطرة. فإذا عرفنا ثقافتنا ووقفنا عند نقاط القوة فيها وعرفنا آليات العقل المحاذي لنا جغرافيا والمنطق المتحكّم فيه أمكننا أن نبني ثقافة ذرائعية حاملة لمشروع واضح الملامح متفاعل مع ما هو موجود لدى غيرنا هدفه النهوض بالإنسان العربي وجعله يقطع مع الرومانسية والعنصرية والسخاء الزائف إزاء الذات وإزاء الآخر.

(1) أبو الوليد بن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتّصال، تقديم ألبير نصري نادر، بيروت، 1961، 31

